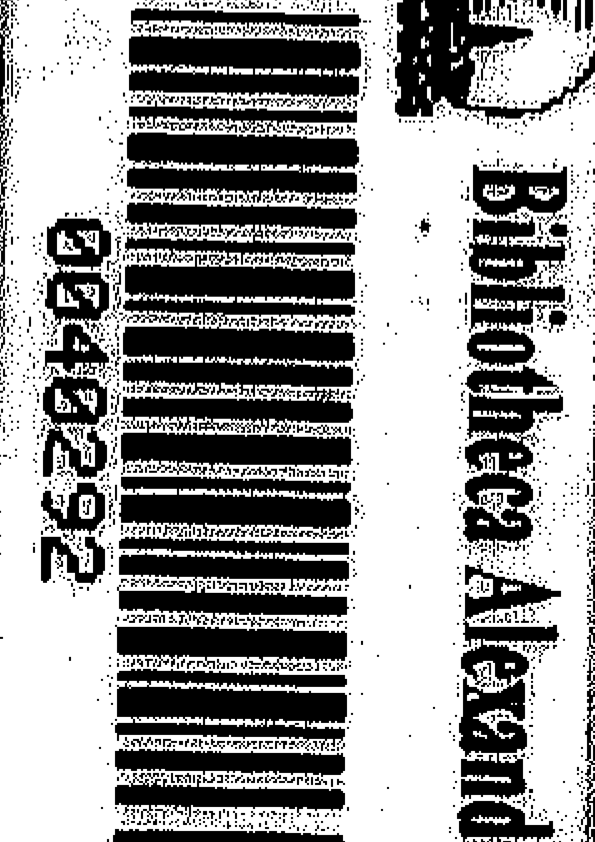
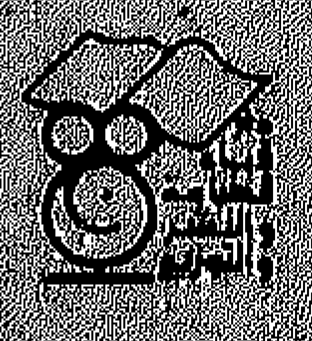
الدكتور محمد عثمان الخشت

فلسفة العقائد المسيحية

قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز





دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

فلسفة العقائد المسيحية

قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز

فلسفة العقائد المسيحية

قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز

الدكتور محمد عثمان الخشت
كلية الآداب جامعة القاهرة

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : فلسفة العقائد المسيحية

قراءة نقدية فى لاهوت ليبنتز

المؤلـــــف : د. محمد عثمان الخشت

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣

التـــــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٧٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقم الإيـــداع : ٩٨/١٣٤٨٢

الترقيـم الدولى : ISBN

977-303- 049-0

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى الرجل الفاضل علما وخلقا:

أ. د صلاح رسلان

عرفانا وتقديرا..

مقدمة

واجهت المسيحية دوما تحديات كبرى . وربما كانت موجة النقد العقلانية التى تعرضت لها فى القرن السابع عشر واحدة من تلك التحديات الكبرى التى قابلتها فى تاريخها الطويل، فهى لاتقل فى خطورتها وقدرتها على التهديد فى الوجود عن موجات العنف التى تعرضت لها فى بداياتها . لكن المسيحية كانت تجد دوما فى كل تحد من هذه التحديات من يدافع عنها ويأخذ بأيديها لكى تستمر فى الوجود . وكان ليبنتز (يوليو ١٦٤٦ نوفمبر ١٧١٦) من هؤلاء الذين عملوا بجدية للدفاع عن المسيحية بما يجعلها قادرة على مواجهة موجة النقد العقلانية التى كانت علامة فارقة من علامات عصر العقل ، أعنى القرن السابع عشر .

ورغم أن ميتافيزيقا ليبنتز ونظريته فى المعرفة قد نالتا حظهما من اهتمام الباحثين فى تاريخ الفلسفة ، فإن موقفه من اللاهوت المسيحى لايزال مفتقرا للدراسة ، لاسيما فى اللغة العربية . وربما توجد ثمة مداخلات علمية مع هذا الموقف ، لكن هذه المداخلات تأتى فى سياق دراسة موقفه من الميتافيزيقا

والمعرفة ولا تأتى كمبحث شامل مستقل قائم بذاته . ومن هنـــا جاءت فكرة هذا البحث الذى يعمل على تكوين صورة فلســـفية لمعالم لاهوت ليبنتز وتحديد موقفه مـــن العقـــائد المســيحية النوعية[1]. وانطلاقا من فهم استقرائى يصعد من الوقـــائع إلـــى النتائج ، والوقائع هنا هى النصوص ، فقد كـــان التركـــيز فـــى المقام الأول على أعمال ليبنتز اللاهوتية والفلسفية ، مع إعطـــاء أولوية لكتابة " العدالة الإلهية Theodicy [2] " لأنه الأكثر بلـــورة لمواقفه من العقائد المسيحية ، لاسيما وأن هذا الكتاب قد نوقـــش

---

[1] المقصود بالعقائد المسيحية النوعية : الثـــالوث ، والقـــربان المقـــدس ، والخطيئـــة ، والخلاص والطقوس الكنيسة ، والتعميد ، واللعنة ، ومعجزات المسيح ..

[2] ابتكر ليبنتز مصطلح Theodicy ليدل به على "العدالة الإلهية"، وقد نحته من كلمـــة Theosاليونانية وتعنى "الله" وكلمة Dike اليونانية وتعنى" العدالـــة "وأطلـــق هـــذا المصطلح على كتابة المشار إليه أعلاه ، وهو يعد رسالة كلاسيكية فى مجـــال حـــل مشكلة الشر ، والدفاع عن العقائد المسيحية . وبعد ذلك أصبح هـــذا المصطلـــح دالا على كل المحاولات التى تعمل على حل مشكلة الشر ، والتوفيق بين وجود إله كـــامل خير ووجود الشر فى العالم . وشكلت هذه المحاولات فرعا مستقلا من فروع الفلسفة ابتداء من القرن السابع عشر والثامن عشر .

انظر :

- John H. Hich , Philosophy of Religion , New Delhi , Prentice-hall of India private limited , 1988 , P . 41.
- John , R . Hinnells, The Facts on File Dictonary of religions,
- New Yourk , facts on file, Inc., 1984 , P. 120.

فى ألمانيا أكثر مما نوقشت مؤلفات ليبنتز كلها[٣].ومع هذا لم يلق حظه من الدراسة فى اللغة العربية . وإذا كانت دراسة واحـــدة لاتكفى ثراء هذا الكتاب، فإن التركيز هنا سيكون علـــى جـــانب واحد فقط ، هو العقائد المسيحية النوعية ، مع المقارنة بتحليلات ليبنتز المتعلقة بالموضوع والتى أوردها فى كتبه الأخـــرى : " المونادولوجيا" و " النظام اللاهوتـــى " ، " والمبـــادىء العقليـــة للطبيعة والفضل الإلهى " ، و " مقـــالات جديـــدة فـــى الفـــهم الإنساني" ، وغيرها .

ولاتعنى هذه العودة إلى النصوص الوقوف بـــالضرورة عند حدود الشرح النصى ، لأن الشرح النصى لايمثل فى هـــذا البحث سوى خطوة واحدة تبدو كمقدمة موضوعية للصعود نحو التأويل الفلسفى الذى ينظر الى موقف ليبنتز من العقائد المسيحية النوعية باعتباره يشكل بنية استدلالية وإشكالية متشابكة العناصر ، ويأتى ضمن نسق فلسفى محدد اكتسب داخله دلالته الحقيقيـــة ، ولكن هذه الدلالة لايمكن فهمها دون وضع النسق الفلسفى فـــى

---

(٣) هاينريش هاينى ، فى تاريخ الدين والفلسفة، ترجمة/صلاح حاتم سوريا ، دار الحوار ١٩٨٨ ص ٦٩ .

سياق التطور العقلى العام للفليسوف ، وسياق العصر الذى عاش أزماته وهمومه وطموحاته .

وتوسلا للموضوعية والأمانة ، كان ثمة حرص على إرجاء نقد لاهوت ليبنتز إلى المرحلة الأخيرة من البحث ، ومع ذلك فقد فرضت بعض الانتقادات الجزئية نفسها على السياق ، لكن النقد الكامل جاء فى النهاية ، ويعبر هذا النقد عن وجهة نظر خاصة ، وليس مستعارا فى أغلبه من التاريخ النقدى لليبنتز إلا إذا كانت ثمة إشارة لذلك .

د. محمد عثمان الخشت

١٩٩٨

المشروع الفلسفى العــام

المشروع الفلسفى العام

لعل من البدهى أن قراءة موقف نوعـــى لفليســوف مــا لاتكتسب دلالتها الموضوعية دون وضع هذا الموقف النوعى فى إطار الموقف الكلى . ومن ثم لابد مـــن البــدء بنظــرة كليــة للمشروع الفلسفى العام الذى دشنه ليبنتز ، فبدون هذه النظـــرة لايمكن فهم موقف ليبنتز من العقائد المســـيحية ، لاســيما وأن المواقف النوعية للفليسوف ليست جزرا منعزلة بعضـــها عــن بعض ، بل هى أشبه بالأوانى المستطرقة التى تتفاعل محتوياتها تفاعلا تاما .

وانطلاقا من فهم استقرائى يصعد مـــــن الوقــائع إلـــى النتائج، والوقائع هنا هى النصوص،يمكن القـــول إن مشــروع ليبنتز ينبنى على محاور ثلاثة،ولاتشــكل الميتافيزيقــا محــورا مستقلا بذاته من بين هذه المحاور ، بقدر ماتشكل الجذر الـــذى تستقى منه المحاور الثلاثة البقاء والنمو والاغتناء، وهى :

المحور اللاهوتى، والمحور السياسى، والمحور العلمى.

أولاً- المحور اللاهوتى :

يمثل الدفاع عن المسيحية بوصفها دين أوربا،والعمل على التوفيق بين فرقها المتنازعة من أجل تكوين اتحاد دينى، نقطة الانطلاق نحو التوحد السياسى . وفى هذا الإطار قام ليبنتز بالدفاع عن العقائد المسيحية ضد محاولات التفكيك واعتراضات الشكاك والملحدين،كما قام بمحاولة نزع الخلافات الدينية بين الفرق المسيحية حول العقائد الأساسية للمسيحية، لاسيما بين الكاثوليكية والبروتستانتية من ناحية،وبين جناحى البروتستانتية وهما اللوثرية والكلفنية – من ناحية أخرى . وكان ليبنتز يظن أن نزع الخلافات الدينية يعنى رفع سببا رئيسيا إن لم يكن السبب الرئيسى، من أسباب الحروب بين الدول الأوربية. كل هذا من أجل تكوين قوة أوربية موحدة فى سبيل التمهيد لاحتلال العالم ونشر المسيحية . ونظرا لأن هذا المحور يمثل موضوع بحثنا الحالى فلا ينبغى الاستطراد فيه هنا أكثر من ذلك ، حيث يكفى التأكيد فقط على أن اللاهوت لم يكن عند ليبنتز مجرد هم عرضى وطارئ، بل كان محورا أساسيا إلى درجة تصل أحيانا،إن لم يكن دائما،إلى جعل ليبنتز يتجاوز دائرة الفلسفة كلية إلى دائرة اللاهوت . وكان هو نفسه على

وعى بهذا التجاوز، إذ يقول "أبدأ دوماً كفليسوف ، ولكنى أنتهى دوما كرجل من رجال اللاهوت "[٤].

ثانياً - المحور السياسى :

يكشف الاستقراء المتقصى لحياة ليبنتز وكتاباته عن كونه صاحب مشروع ضخم لإنشاء كونفدرالية أوربية مسيحية تتجاوز من خلالها أوربا كل أشكال النزاع والتطاحن التى تهيمن على خريطتها السياسية والدينية . ولم ييأس ليبنتز أبدا من السعى الدءوب لإقامة اتحاد للشعوب الأوربية المسيحية ضد الشرق. ولقد قدم مشروعه السياسى هذا إلى الملك الشمس لويس الرابع عشر أقوى ملوك أوربا فى تلك الفترة،حيث عقد الأمل عليه من أجل إخراج هذا المشروع من النظر إلى العمل. ومن المعروف أن نقطة البدء فى المشروع كانت هى غزو مصر التى يعتبرها ليبنتز الرابطة الجوهرية بين الشرق والغرب(٥)

---

(٤) Meyer , R.W , Leibniz and the seventeenth century revolution, translated by J. P. stern, Cambridge, 1952 , P. 152 .

(٥) يقول ليبنتز عن مصر إنها: " أول برزخ فى العالم موحد البحرين الأكثر أهمية فى الأرض، إنها الطريق الضرورية الذى يجب أخذها وإلا فالدوران الكامل حول أفريقيا، إنها حلقة الوصل بين الشرق والغرب " المخطوط السرى لغزو مصر، ترجمة د. أحمد يوسف، دار الهلال ١٩٩٤ ، ص ٦٨ .

ومفتاح السيطرة على الشرق،والوسيلة الوحيدة لإعادة إرساء شئون المسيحية فى الشرق،فكل الحملات المسيحية فى فلسطين ستكون بلا جدوى مادامت مملكة مصر لم تسحق. هكذا تأخذ السياسة الاستعمارية عند ليبنتز قناعا دينيا،فمع أن مشروعه سياسى فى المقام الأول، فإنه مغلف بتبريرات دينية تبشيرية، يقول ليبنتز : " إذا فتح هذا الطريق فإن مجالا رحبا للأعمال العظيمة على غرار ماقام به الإسكندر، إنى لأرى الإنجيل وقد وصل إلى أبعد الأصقاع وانتشرت الغبطة المسيحية فى كل الأرضين[٦]". ويستشهد ليبنتز بقول إمانويل ملك البرتغال ليعطى مشروعية دينية لمشروعه الاستعمارى، يقول ليبنتز: "والدليل على ذلك قول إمانويل : إنى لأرى فى هذا المشروع الإرادة الإلهية تتجلى بطريقة خاصة ووعده الأكيد لنا بالنصر فى كل الظروف"[٧]. ويتحدث مرة أخرى مستحضرا روح الحروب الصليبية وآليتها فى التخفى وراء قناع الدين ، فيقول: "وفى عصرنا هذا أراد عثمان سلطان الترك نقل عاصمة الامبراطورية من القسطنطينية إلى القاهرة لكن الانكشاريين

(٦) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

عارضوه. هكذا شاءت العناية الإلهية كي يبقى هذا البلد مفتوحا أمام المسيحيين حتى يستطيعوا سحق امبراطورية الترك"[٨].

وهو إذ يستحث ملك فرنسا على استعمار الشرق ابتداء من مصر، يتحدث باسم الله والإنسانية:"ففرنسا رابحة في كل الحالات فقضيتها عادلة أمام الله وأمام الإنسانية"[٩] .

على هذا النحو أصبح الاستعمار والقهر والاستعباد من القضايا العادلة ليس بمعيار البشر فقط، بل بمعيار الله أيضا ! يضيف ليبنتز مغالطا:"ماأكثر عدلا من حرب مقدسة ومشروع لخير الإنسانية ومصلحة المسيحية وخلاص التعساء الذين يرجون مساعدتنا من أجل القبر المقدس بل إن السماء نفسها تنتظر قراره (أى لويس الرابع عشر)، فها هنا المجد والمآثر والقيم والإيمان، وهنا التكفير عن سيء الأعمال، هنا أخيرا الخلاص" . ![١٠]

من الواضح إذن أن المشروع السياسى لليبنتز يكتسب مشروعيته من التبرير الدينى العقائدى،لكن هذه المشروعية في

---

(٨) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٤.

الواقع لم تكن إلا قناعا للمطامع المادية،تلك المطامع التى يبدو أنها أصرت على الظهور فى نص مشروع ليبنتز ، وكأنها تعلن أن المسيحية وحدها لا تكفى لكى تحرك ملك فرنسا لإعلان حرب استعمارية عالمية ضد الشرق ابتداء من احتلال الرابطة الجوهرية "مصر" ، التى هى : "أم العلوم وفواكه الأرض ومعجزات الطبيعة والفن"[١١]، وكانت "صومعة الغلال لروما" [١٢]، وهى اليوم : "مخزن غلال تركيا" الذى تنهل منه الكتان والتيل ومؤن البحر والبن والأرز والشراب ومنتجات أخرى كثيرة إن إيراد مصر اليوم يصل إلى ٦ ملايين فى العام على الرغم من تدهور تجارتها وجهل وإهمال المسلمين"، وفى السياق نفسه لاينسى ليبنتز "توابل الشروق "[١٣] !.

ويقدم ليبنتز فى خطته لغزو مصر خطة متكاملة الأركان ومعتمدة على نوع من التحليل السياسى والاقتصادى والجغرافى،فضلا عن كونه يقدم خطة عسكرية مفصلة لاتكتفى ببيان القدرات العسكرية اللازمة لعملية الغزو، بل تشرح كذلك العناصر المكونة للجيش المصرى، وتقدم وصفا للشواطىء،

---

(١١) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(١٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ٦٩ .

وبيانا للتحصينات، وتقديرا دقيقا للاحتمالات، ومن بينها احتمال تدخل تركيا لنجدة مصر وكيف أنها لا تستطيع ذلك إلا متأخرة وبمشقة بالغة ؛ فالبحرية التركية لايعتد بها، والقوات البرية في حالة تدهور، والانقسامات الداخلية سائدة في تركيا، فضلا عن الانشقاق بين الأتراك في مصر نفسها، ثم إن مناصرة مسيحي تركيا للغزو مضمونة وسيكون لهم نصيب كبير في المشروع.

وينبغى التأكيد على أن المحور السياسى في مشروع ليبنتز العام، لم يكون محورا هامشيا أو ثانويا أملته ظروف طارئة، بل كان محل اهتمام وهم كبيرين طوال حياته، إذ إنه لم يتخل عنه في يوم من الأيام، فقد عمل منذ فترة مبكرة في وظيفة مستشار لعدد من الأمراء، واقترب من الملوك، وصاغ رؤيته السياسية الاستعمارية أثناء عمله كرجل بلاط .

وبعد احتلال لويس الرابع عشر لفلاندر[١٤] ذات الأهمية الحربية القصوى منذ العصور الوسطى بحكم موقعها، كتب

---

(١٤) هى كونتية قديمة بالأرض المنخفضة ، تمتد بمحاذاة بحر الشمال وغرب نهر شلدت، ومقسمة الآن بين بلجيكا وفرنسا ، وكانت تمثل قلب التطور السياسي والاقتصادى فى الأراضى المنخفضة أثناء العصور الوسطى. انظر :

Academic A Mercian Encyclopedia .
New Jersey , Arete, Pullishing .
Company Inc, 1980 , Vol 8,p . 152.

ليبنتز مذكرة حول "الأمن العام الداخلى والخارجى" لحفظ الوحدة الألمانية، ويدعو فيها هولندا إلى غزو الهند الشرقية، والدانمارك إلى غزو أمريكا الشمالية، والسويد وبولونيا إلى محاربة روسيا بهدف صرف دول أوربا عن محاربة بعضها البعض إلى محاربة وغزو دول خارجية . وعندما شعر بأن آماله فى اتحاد أوربا ستتحطم من جراء طموحات لويس الرابع عشر فى غزو هولندا ، ذهب إلى فرنسا سنة ١٦٧٢، بعد مناقشات مع أمير مايانس Mayence ، من أجل تقديم خطته الاستعمارية الكبرى إلى لويس الرابع عشر، وكانت هذه الخطة مبدئية ومختصرة وعنوانها " Aegyptiacum consiluam " ويحث فيها الملك الفرنسى على غزو مصر والشرق ، لكنه رفضها على أساس أنها ليست على الموضة La mode على حد تعبيره. وكان ليبنتز حريصا على تقديم هذه الخطة دون تفصيل فى البداية لسببين فيما يقول د . جوهراور Guherauer هما: " أولا " خدمة مصالح دوقية شوينبورن بإلهاء لويس الرابع عن نشاطاته الخطرة، وذلك بإطعامه ضحية أخرى فى بلاد بعيدة وقد أصبح هذا مستحيلا(١٥) كما رأينا لأن قرار الملك المفاجىء جعله غير

---

(١٥) لأن الملك قرر بالفعل غزو هولندا .

ذى قيمة، أما السبب الثانى ، فهو هدف أكبر وأهم وهو مزج الحضارتين الغربية والشرقية فى بوتقة واحدة . هذا الهدف الأخير عمل من أجله ليبنتز ودافع عنه زمنا طويلا بنشاط وكد لايخرجان إلا من رجل مثله "[16] .

ومع أن لويس رفض الخطة ، فإن ليبنتز لم يتخل عنها فأعاد كتابتها مرة ثانية، وقام بحشد كثير من المؤازرين له لمحاولة إقناع لويس ، لكنه عاد فرفض الخطة تارة أخرى. وقضى ليبنتز خمسة أعوام فى باريس يواصل جهوده متقربا إلى رجال البلاط الفرنسي والساسة والفلاسفة ورجال الدين. وقدم لكل طرف من هؤلاء ما يمكن استرضاؤه واستمالته به؛ حيث قدم على سبيل المثال لآرنو رجل الدين صيغة توفيقية لصلاة للرب تجمع بين مفاهيم يهودية ومسيحية وإسلامية من أجل إرضاء جميع أطراف هذه الديانات الثلاث . لكن آرنو رفض هذه الصلاة التوفيقية واستنكرها . كما قدم لمالبرانش نظرية الانسجام الأزلي لكى يستعيض بها عن نظرية المناسبة بين المادة والروح لكن كل هذا باء بالفشل . وإبان تلك الفترة

(١٦) ليبنتز ، المخطوط السرى لغزو مصر، مقدمة النص الفرنسى، ص ٤٧ – ٤٨ .

مات مساندوه السياسيون من الأمراء والدوقات ، ومر بظـروف عسيرة، حتى دخل فى خدمة دوق برانشفيك يوهان فريدريش ، ونال رزقه من تولى تربية ابن بوينبورج ومن تأليف أهـاجى سياسية .

ولم تقف جهوده السياسية عند هذا الحد، إذ كتـب خطـة لمحاولة تنظيم الامبراطورية الجرمانيـة سـنة ١٦٧٧ ، علـى أساس التوفيق بين مصالح الإقطاعيين ومصالح الإمبراطور ثـم حاول إقناع تشارلز الثانى عشر ملك السـويد بغـزو الشـرق والسيطرة على الشعوب الهمجية وهدايتها إلى المسيحية ، وهنـا جاء الدور على الصين[١٧]لكن جهوده باءت مرة أخرى بالفشـل. وبعد انتصار بطرس الأكبر قيصر روسيا على تشارلز الثـانى عشر فى بولتافا ١٧٠٩ ، قدم خطته الاستعمارية لهذا القيصـر

---

(١٧) لقد فكر ليبنتز فى تحويل الصين إلى المسيحية، لابواسطة إيضاحه للصينيين أنهـم على خطأ، بل بتبيان أوجه الشبه بين ديانتهم وبين المسـيحية مسـتعينا بفكـرة الوحـدة الجوهرية للفكر البشرى. ولكن الحقيقة الواقعية خيبت ظنه، لأنها ليست مـادة يشـكلها المرء على هواه .

انظر: بول هازار ، أزمة الضمـير الأوربـى. (١٦٨٠ ١٧١٥)، ترجمـة جـودت عثمان ومحمد نجيب المستكاوى، وتقديـم د. طـه حسـين ، القـاهرة ، دار الشـروق ١٩٨٧ ، ص ٢٣٥ .

المنتصر سنة ١٧١١ الذى لم يعره أذنا صاغية. ثم استقر به المطاف فى فيينا، حيث سعى إلى عقد حلف بين قيصر روسيا وامبراطور النمسا .

إن هذا الاستطراد النسبى فى بيان أهم معالم جهود ليبنتز السياسية ، يكشف ويؤكد مدى حضور المحور السياسى فى المشروع العام لفلسفة ليبنتز . وفى ظنى أن تسليط الأضواء على هذا المحور ضرورى لفهم موقف ليبنتز من اللاهوت ، حيث إن هذا اللاهوت كما سنبرهن لاحقا ليس بمعزل عن الدوافع السياسية ، كما أن العلاقة بين الجانبين علاقة تفاعل كامل ' فليست العلاقة بين المحورين علاقة تجاور بقدر ماهى علاقة تداخل ، حيث يستقى كل واحد منهما من الآخر مشروعيته ونموه. ولاهوت ليبنتز فى احد جوانبه ماهو إلا قناع وآلية تخفى المقاصد السياسية الحقيقية .

ثالثاً - المحور العلمى

يمثل المحور العلمى أحد هموم معظم فلاسفة القرن السابع عشر ، ولاسيما بيكون،وديكارت،و ليبنتز، فبيكون كان مشروعه الفلسفى هو تجديد مناهج العلوم الذى عرض خطته فى مقدمة

"الأورجانون الجديد Novum Organum " (١٦٢٠م). ولـــم يكــن يهدف بيكون من إصلاح العلوم إلى المعرفة ذاتـــها ولذاتـــها ، وإنما السلطان علـــى الطبيعة أى العلم الفعال المحقق لمصلحـــة الإنسان[١٨] .

ومع أن ديكارت يختلف بشكل أساسى مع بيكـــون، مـــن حيث طبيعةالموقف الا بستمولوجي والمنهجي ، فإنه كان يـــهدف مثله إلى الارتقاء بالعلوم. وغير خاف أن العلـــم عنـــــــد بسكال كان همًا رئيسيا، وبالأحرى كان يشكل مـــع اللاهـــوت المسيحى جماع فكره ونقطة ارتكاز حياته ووجهتها .

وقد كان الارتقاء بـــالعلوم محـــورا مـــن بيـــن محـــاور ثلاثة يقوم عليها المشـــروع الفلســفى عنـــد ليبنـــتز ، حيـــث شـــارك فلاســفة عصـــره الكبـــار ولاســيما ديكـــارت فـــى

---

(١٨) انظر :

Francis Bacon, The Philosophical works , Reprinted Form the texts and translations of Ellis and spedding , by John M, Ro, Roberbon, London, routlede. 1905 , pp ,474-5 .

حيث يبين بيكون ضرورة استخدام المعارف من أجل إحداث عمليات، رائعة فى الطبيعـــة على غرار مايفعل السحر الطبيعى natural magic واستخراج المعادن النفيسة وإطالـــة عمر الإنسان على غرار ماتفعله السيمياء Alchemy.

اهتمامـــهم بـــهذا الشـــأن[١٩]. وكـــانت نظرتـــه إلـــى العلـــم لاتخلومن نظرة عملية، فـــهو الوســـيلة للارتقـــاء التكنولوجـــى وجعل السيطرة على الطبيعة أمـــرا فـــى متنـــاول الإنســـان . وفى هذا السبيل سعى ليبنتز إلى التوصل إلـــى منـــهج محكـــم يمكنه أن يشكل أساسا يقينيا دقيقـــا للمعرفـــة العلميـــة، يجنبـــها الوقـــوع فـــى الخطـــأ ، ومـــن ثـــم حـــاول اكتشـــاف " الأداة الصحيحة (المنهج) للعلم العـــام بكـــل شـــىء يعـــد موضوعـــاً للاستدلال الإنسانى ، ويستطاع تزويـــده فـــى شـــتى جوانبـــه ببراهين واضحة مثل الـــبراهين الرياضيـــة"[٢٠].

وتطلع ليبنتز إلى إيجـــاد لغـــة عالميـــة رمزيـــة للعلـــم عوضا عن اللغات الجاريـــة ، بـــهدف تجنـــب أوجـــه اللبـــس التـــى توقع فيها هذه اللغـــات يقول[٢١] : "اللغـــات الطبيعيـــة

---

(١٩) انظر :
Leibniz, Monadology and Other philosophical Essays , Translated by Anne Martin Schrecker and paul Schrecher , Indianapolis ,1965, p. 11

(٢٠) Ibid . p. 19 .

(٢١) ولذلك كان أحد رواد المنطق الرياضى كما يقول برتراند رسل
Russell, B. History of Western Philosophly , London, Unwin Limited, 1981 , p. 591 .

لها قيمة كبرى فى الاستدلال ، ولكنها حافلة باللبس بلاحدود، وعاجزة عن الإسهام بدور فعال فى التكامل والتفاضل. ولو كانت قادرة على ذلك لأمكننى الكشف عن أخطاء الاستدلالات ، فى صيغة الكلمات وطريقة تكوينها "[٢٢]. وكان بين أهداف هذه اللغة العالمية أيضا توحيد العلماء فيما بينهم ، فمن بين أسباب عدم تقدم العلوم على نحو مرضٍ تعدد لغات العلماء . وهنا يظهر لنا أحد المقاصد العامة الكلية لليبنتز ، أعنى التوحيد أو الاتحاد، فلم يكن يهدف فقط إلى اتحاد ألمانيا ، واتحاد أوربا، واتحاد المسيحية،بل كان يهدف كذلك إلى اتحاد العلماء . وكانت اللغة العالمية التى أرادها تمثل إحدى وسائل هذا الاتحاد ، وثمه وسيلة أخرى دعا إليها ليبنتز كذلك وهى إنشاء المجامع العلمية.

ولم تكن المعرفة النظرية المحض هى غاية ليبنتز ، بل كانت مجرد خطوة ضرورية فى سبيل تكوين العلم الفعال، أعنى العلم القابل للتطبيق، فالتوصل إلى منهج دقيق ولغة دقيقة لهما

---

(٢٢) Leibniz , Monadology and other Philosophical Essays , P 18 .

ضرورة عملية،لأنه إذا لم يتم الاهتداء إلى معرفة يقينية مبرأة من الخطأ، سينجم عن ذلك الوقوع فى معارف خاطئة نتصور أنها صحيحة، مما يترتب عليه الوقوع فى تطبيقات عملية خاطئة ينشأ عنها آثار سلبية فى الواقع[٢٣]، أما المعارف الصحيحة فتفيد الواقع إفادة كبرى ، وتمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة. ولاشك أن مساهمة ليبنتز الفعالة فى تطوير الآلة الحاسبة ليغدو بإمكانها الضرب والقسمة واستخلاص الجذور ، واكتشافاته فى مجال الجيولوجيا واستخدام الطاقة والتعدين والمناجم، كلها تؤكد الطابع العلمى التطبيقى للعلم عند ليبنتز ، فالعلم ليس من أجل العلم، بل من أجل السيطرة على الطبيعة.

---

(٢٣) لكن التوصل إلى لغة رمزية للمنهج العلمى تدل على الأفكار الأولية والمشتقة سوف يساعد على عدم الوقوع "فى الخطأ نهائيا، وإذا وقع المرء فى الخطأ، سوف يكون باستطاعته دوما اكتشاف الأخطاء بذاته بعد القيام باختبارات بالغة البساطة على النحو الذى يقوم به الجميع. وفوق هذا فإنه سيتمكن من اكتشاف الحقيقة الكامنة فى المعطيات المتاحة" Ibid , P.19 .

توافق الحقيقة الدينية والحقيقة العقلية

توافق الحقيقة الدينية والحقيقة العقلية

يذهب ليبنتز إلى وجود توافق تام بين الحقيقة الدينية والحقيقة العقلية؛ ولامجال عنده لأى نوع من التنافر بين كنههما؛ يقول: "لايوجد تناقض بين الحقيقتين؛ لأن قصد الإيمان هو الحقيقة التى أوحى الله بها بأسلوب خارق، بينما يختص العقل بالحقيقة التى تصل إليها القدرة العقلية الإنسانية بطريقة طبيعية دون أى عون من النور الايمانى أو الحقيقة الإيمانية [٢٤] " .

فالحقيقتان إذن منسجمتان ، لكن أسلوب التوصل إلى الحقيقة الدينية مغاير لأسلوب التوصل إلى الحقيقة العقلية؛ فالأسلوب الأول هو الوحى الخارق للأساليب الطبيعية، بينما الأسلوب الثانى هو الاكتساب العقلى المؤسس على طرق طبيعية. وهكذا ثمة طريقان أو أسلوبان ، ولكن الحقيقة واحدة تأخذ تارة اسم الحقيقة الدينية تبعا لمنهج التوصل إليها ، وتأخذ تارة أخرى اسم الحقيقة العقلية تبعا لمنهج التوصل إليها .

---

[٢٤] Leibniz , Theodicy, ed . by Austin Farrer, Trans, by E.M.Huggard London, R outledge & kegan paul LTD. 1952 , p.73.

وانطلاقا من هذا التوافق بين الحقيقتين يؤسس ليبنتز الإيمان على العقل، مع أنه فى أحيان كثيرة يرفع الإيمان فوق العقل ويعتبر العقل عاجزا عن فهم العقائد الإيمانية ! ومن الواضح أنه يلجأ للموقف الأخير كلما شعر بعدم القدرة على إقامة البرهان على توافق العقل والإيمان المسيحى، فيدفعه هذا لسد المجال أمام مناقشة العقل للعقائد الدينية، وإيثار الإيمان على العقل، ولامانع عنده فى هذا السياق من التحالف مع الشك الفلسفى فى العقل بوصفه عاجزا عن اكتشاف الحقيقة ؛ فالشك من هذا يمهد الطريق أمام الإيمان بأن يغرس فى البشر التواضع العقلى والإذعان أمام الاعتقاد فى الخوارق والمعجزات التى لايفهمها العقل. وقد ظهر هذا الموقف عندما تناول ليبنتز العقائد النوعية فى المسيحية مثل التثليث . لكنه عندما كان يناقش العلاقة بين العقل والإيمان بشكل كلى وعام بعيدا عن العقائد النوعية للمسيحية فإنه كان يؤكد على تطابق الاثنين ويسعى لمنهجية تأسيس الإيمان على العقل ، ويرى أنه بدون هذه المنهجية لن يمكن الإجابة على هذا السؤال :

"لماذا نفضل الكتاب المقدس على القرآن أو على كتب البراهمة القديمة ؟[٢٥] ".

---

(٢٥) Lebinz, New Essays concerning Human Understnding, together with An Appendix consisting of some of his shorter pieces, trans . by A.G. Langley, New Yourk , the Macm illan company, 1896, P.580.

من الملاحظ أن المترجم يتهجى اسم ليبنتز هكذا Leibnitz، وهذا الهجاء موجود عند كثير من المترجمين، لكن الأغلب هو كتابته هكذا Leibniz .

وهذا كما يشير ليبنتز مسادرج عليه اللاهوتيون والمعلمون؛ حيث إنهم أسسوا الإيمان على العقل. وبفضل هذا أيضا تم تأليف كتب ممتعة عن حقيقة الدين المسيحى،وتقديم الكثير من الحجج الممتازة ضد الوثنيين والكافرين قديما وحديثا.ولذلك يرفض ليبنتز موقف الذين يرون أنه ليس من الضرورى أن يزعجوا أنفسهم بالوصول لأسباب وحجج تدعم الإيمان .

ومن جهة أخرى يرفض ليبنتز القول بحقيقتين منفصلتين إحداهما لاهوتية والأخرى فلسفية. ولهذا يستهجن رأى بعض الفلاسفة الأرسطيين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الذين يتمسكون بوجود حقيقتين متقابلتين : حقيقة فلسفية،وحقيقة لاهوتية [٢٦] . فالحقيقة واحدة سواء كانت فلسفية أو لاهوتية ، ومن الخطأ الفصل بين العقل والدين؛ لأن "المفاهيم المطلقة والأفكار الضرورية والنتائج الحاسمة للفلسفة لايمكن أن تتناقض مع الوحى، وحينما يرفض اللاهوت بعض المبادىء الفلسفية، فإن السبب يعود إلى أنها تنظر فقط إلى الضرورة

---

(٢٦) Ibid. , pp. 280 1

الفيزيائية التى تتحدث عما يحدث عادة،وماهو قائم على الظواهر وليس على نحو ماقد حدث حسب مشيئة الله (٢٧). ويبدو لليبنتز وجود بعض الالتباس فى تعبيرات الذين يهاجمون الاختلاف بين الفلسفة والدين، أو العقل والإيمان. ويحدث هذا الالتباس فى الغالب نتيجة أن الأفكار الدينية ربما يكون قد تم شرحها لتبزير الإيمان بها بشكل كاف، ولكن لايستطيع المرء أن يدركها ولا أن يفهم كيفية حدوثها .

ويرى ليبنتز أنه إذا أمكننا أن نؤمن بأسرار الدين بواسطة البراهين العقلية على حقيقة الدين ،فإنه سوف يكون بمقدورنا تأييد الأسرار الدينية ضد الاعتراضات التى تواجهها. وبدون ذلك لن يكون الإيمان بالأسرار الدينية قائما على أساس راسخ. ومثل تلك البراهين التى تتعلق بحقائق الدين والتى لاتقدم سوى يقين أخلاقى، فى مقدورها أن تتوازن ،بل بمقدورها أن ترجح تلك الاعتراضات على أسرار الدين، بشرط أن تكون تلك البراهين العقلية على حقيقة الدين مقنعة وحاسمة تماما (٢٨).

(٢٧) Leibniz , Theodicy , P.75.

(٢٨) Ibid . , P. 76.

لقد ظلت مسألة تطابق العقل مع الإيمان مشكلة كـــبرى على الدوام طوال تاريخ المسيحية؛ فقد كيف المؤلفون الأوائـــل في الكنيسة القديمة الأولى أنفسهم مع الأفكار الافلاطونية التـــى كانت مقبولة عندهم والتى لاقت استحســـانا عامـــا فـــى ذلـــك الوقت.وشيئا فشيئا بدأ أرسطو يحتل مكانة أفلاطون عندما بـــدأ يسود الميل للبناء المذهبى فى الوقت الذى صار فيه اللاهـــوت نفسه مجموعات متماسكة من الأفكار والمبادىء بسبب قـــرارات المجامع الكنيسة العامة التى اشتملت على صيـــغ دينيـــة دقيقـــة وإيجابية . ومن المعروف أن ثمـــة مجموعـــة مـــن الفلاســـفة واللاهوتين قد ساهموا فى تحويل اللاهوت إلى الصـــــــــورة العلمية ،مثل أوغسطين Augustine ، وبوثيوس Boethius ، وكاسيو دورس Cassiodorus ، ويوحنا John ، وبيـــدى Bede ، وألكويـــن Alcuin ، وأنسلم Anselm ، وبعض اللاهوتيين الأخريـــن الذيـــن تضلعوا فى الفلسفة الافلاطونية، ثم جاء فى النهاية اللاهوتيـــون الذين اعتمدوا على منطق أرسطو ونظرياته فى دراستهم، كمـــا أن الفراغ الذى كان يحيط بحياة الأديرة أعطى مجـــالا متســـعا

لأسلوب التفكير التأملى الذى ساعد على انتشاره فلسفة أرسطو التى تم ترجمتها من اللغة العربية .

ونشأ عن ذلك كله مركب من الفلسفة واللاهوت، وانبثق من هذا المركب أغلب المسائل التى نتجت عن الصعوبات التى واجهت محاولات التوفيق بين العقل والإيمان المسيحى. ولكن لم تلق المحاولات التوفيقية النجاح المأمول منها فى رأى ليبنتز؛ بسبب ما اعترى الفلسفة من انحراف نتيجة بؤس ذلك العصر على حسب تعبير ليبنتز نفسه الذى اتسم بالجهل والعناد . وبالإضافة إلى أخطاء الفلسفة التى كانت أخطاء كبيرة، حملت الفلسفة على كاهلها عبء اللاهوت الذى عانى بدوره من الاتحاد مع الفلسفة التى اتسمت بالإبهام والخلل [٢٩] .

وقبل حدوث الانشقاق الكبير فى المسيحية والذى لايزال قائما، كان هناك فى إيطاليا مجموعة من الفلاسفة الذين جادلوا فى فكرة تطابق الإيمان المسيحى مع الفلسفة التى أكدها ليبنتز . وكما يقول: "قد قام هؤلاء الفلاسفة بنقل أعمال ابن رشد(١١٢٦-١١٩٨م)؛ لأنهم تعلقوا

(٢٩) Ibid.

كثيرا بهذا المؤلف العربي الشهير الذى كان يُلقب بالشارح، وذلك بسبب تفوقه ، والذى يُعدّ الأوحد بين بنى جنسه الذى استطاع أن يتوغل بعمق فى معانى فكر أرسطو. وقد قيم هذا الشارح مالدى الشراح الإغريق بناء على نظريات أرسطو وبناء على العقل (فى ذلك الوقت كان الاثنان متطابقين : العقل وفكر ـ أرسطو) [٣٠].

وذهب هؤلاء الفلاسفة الأرسطيين الرشديين إلى التمسك بحقيقتين متقابلتين : إحداهما فلسفية والأخرى لاهوتية [٣١] . واعتقدوا أن مذهبهم قد قام عليه البرهان العقلى بشكل حاسم. وبناء على ذلك أعلنوا أن الفلسفة تجزم بفناء النفس البشرية، بينما المسيحية تجزم بخلودها. ويرى ليبنتز أن هذا التمييز أدى إلى الشك، كما أن الانفصال بين الإيمان والفلسفة لاقى رفضا شديدا من الأساقفة وعلماء اللاهوت. وفى عهد البابا ليو العاشر (١٤٧٥ ١٥٢١). أدان المجمع الكنسى Lateran Council

(٣٠) Ibid . ,.P . 77 .

(٣١) Leibniz , New Essays ,P. 5 80 1 . .

الانفصال بين الجانبين، وتمّ حث العلماء للعمل على إزالة كل الصعوبات التى تضع الفلسفة واللاهوت فى موضع اختلاف [٣٢].

ومع هذا، استمرت نظرية التنافر والتقابل بين اللاهوت والفلسفة محافظة على وجودها بطريقة غير معلنة. وكان بونبوناتزى (١٤٦٢ - ١٥٢٥) موضع شك فى أنه يعتنق هذه النظرية مع أنه أفصح بما يخالفها. وظلت طائفة الرشديين متماسكة كمدرسة. ويرجح ليبنتز أن يكون كريمونينى الفليسوف الشهير فى عصره أحد الدعامات الأساسية لهذا المذهب [٣٣].

وكما رأينا من قبل، فإن ليبنتز يرفض نظرية الحقيقتين المتقابلتين، ويؤكد أن الحقيقة واحدة؛ فلا يوجد تناقض بين ماتقوله الفلسفة الحقة واللاهوت. ولكن ماذا لو تعارض المعنى

---

(٣٢) Leibniz , Theodicy , P.80 1.

(٣٣) Ibid .

وانظر مناقشة موسعة للموضوع كله عند :

Windeband , AHistory of philosophy, trans. by J.H. Tufts, New Yourk, macmillan & Co. , 1893, PP. 318 sq. , 339 sq.,359 .

الحرفى للكتاب المقدس مع حكم مؤكد من أحكام العقل، كأن يكون هذا المعنى الحرفى مقررا لأمر مستحيل منطقيا أو على الأقل مستحيل فيزيقيا .. هل الأكثر معقولية أن ننكر المعنى الحرفى أم ننكر المبدأ الفلسفى ؟ يجيب ليبنتز على هذا الإشكال بقوله : "بالتأكيد ثمة مقاطع لاتوجد صعوبة فى التخلى عن معناها الحرفى، مثلا عندما يصف الله بأن له أيد وينسب إليه الغضب والندم وسائر العواطف الإنسانية، وإن لم نفعل ذلك وضعنا أنفسنا بالضرورة فى جانب المشبّهين أو بعض المتعصبين الانجليز الذين اعتقدوا أن هيرود Herod تحول فعليا إلى ثعلب عندما ناداه المسيح بهذا الاسم . هنا تكون قواعد التأويل فى موضعها، أما إذا لم تمدنا بشىء يخالف المعنى الحرفى لصالح تفضيل القاعدة الفلسفية، وإذا كانت إضافة المعنى الحرفى لاتشتمل على شىء ينسب إلى الله أى نقيص، ولايستتبع أى خطر على ممارسة التقوى، فإن الأكثر أمنا والأكثر معقولية حقا أن نتبع المعنى الحرفى " (٣٤) .

---

(٣٤) Leibniz , New Essays, P.589 .

واتباع المعنى الحرفى فى هذه الحالة واجب ، حتى وإن كان غير مفهوم للعقل ؛ فحكمة الله كما يقول القديس بولس تكون حماقة فى نظر البشر؛ لأنهم يحكمون على الأشياء طبقا لتجربتهم فحسب وهذه التجربة محدودة جدا، وكل شىء لايتفق معها يبدو لهم سخيفا. ويرى ليبنتز أن هذا الحكم من قبل البشر "طائش جدا؛ لأنه يوجد فى الواقع عدد لانهائى من الأشياء الطبيعية التى تبدو أمامنا وكأنها سخيفة أو غير معقولة إذا أخبرنا بها، مثلما بدا الأمر لملك سيام عندما قيل له إن الثلج يغطى أنهارنا. لكن نظام الطبيعة ذاته غير القائم على أية ضرورة ميتافيزيقية، مؤسس فقط على رغبة الله الخيرة، ولهذا فإن الله ربما يحرّف من ذلك (أى من نظام الطبيعة) بواسطة دواعى النعمة الإلهية العليا، مع أنه بالضرورة يواصل العمل داخلها على أساس الأدلة الجيدة وحدها التى يمكنها أن تأتى فقط من شهادة الله ذاته والتى يجب أن نذعن لها تماما عندما تتأكد صحتها على الوجه الأكمل"(٣٥) .

---

(٣٥) Ibid ., P.582.

وثمة زاوية أخرى يطل منها ليبنتز على العلاقة بين الإيمان والعقل، ويؤكد من خلالها أن أسرار الدين المسيحى لاتتناقض مع الأحكام العقلية حتى وإن بدت هذه الأسرار غير مفهومة ومستغلقة تماما على أى عقل إنسانى . والزاوية التى أطل منها هذه المرة هى التمييز بين ماهو فوق مستوى العقل وماهو مناقض للعقل. ولقد اعتاد اللاهوتيون من قبل إقامة مثل هذا التمييز؛ حيث وضعوا الأسرار المسيحية فوق مستوى العقل، وتلك الأسرار التى لايستطيع أحد أن يفهمها أو يقدم لها تفسيراً. وحددوا ماهو مناقض للعقل بأنه كل رأى تم الاعتراض عليه ببراهين صحيحة لايمكن دحضها، واعتبروا أن أسرار الدين المسيحى غير مناقضة للعقل؛ وإنما هى فوق مستوى العقل[٣٦] .

---

[٣٦] قال جون لوك بهذا التمييز الذى يعتبر عادة مألوفة عند اللاهوتيين ،

انظر:

Locke, Examination of Opinion of seeing all things in God, philosophical works, ed., London, Vol. 2, P 455. وقد

كتب لوك هذا الكتاب ١٦٩٤ – ١٦٩٥ ونشر بعد وفاته . وهاجم لوك مالبرانش لكونه يزعم أنه يفسر الذهن الإنساني بواسطة معرفته للذهن الإلهي؛ إذا إنه يعرف الله افضل من معرفته لفهمه هو كإنسان. أما لوك نفسه فيرى أن ماهية الله فوق الفهم الإنساني. =

يقول ليبنتز : "إن التمييز بين ما هو أسمى من العقل وما هو مناقض للعقل ، تمييز مقبول، وذلك وفقا للتمييز الذى عقدناه بين الضرورتين الفيزيائية والميتافيزيقية؛ لأن ما هو مناقض للعقل إنما هو مناقض فقط للحقائق الحتمية واليقينية المطلقة. ولكن ما هو أسمى من العقل يناقض فقط ما اعتاد الإنسان على فهمه . وإننى لأشعر بالدهشة حينما أرى بعضا من الأذكياء عارضوا هذا التمييز، وأدهش كذلك حينما أرى بيل BAYEL واحدا من هؤلاء . إن هذا التمييز موجود على نحو يقينى. وتتجلى الحقيقة التى هى أسمى من العقل عندما لا تستطيع عقولنا وكل عقل مخلوق أن يفهمها. وهذا كما يبدو لى- مثل الثالوث المقدس، والمعجزات التى اختص الله بها فقط..." (٣٧) .

= ومع أنه يدعو لاستخدام العقل ويعتبره أفضل من الإيمان الأعمى والساذج، فإنه أكد أن بعض الحقائق أعلى من العقل، وإن لم تتعارض معه، مثل المعجزات وكل مايسمو فوق الطبيعة مما أشارت اليه التوراة انظر:

Peterking , The life of John locke, London, 1830, Vol.1 , P.163.

ومع هذا فقد حاول أن يؤكد الطابع المعقول للمسيحية، ورد جميع عقائدها الأساسية إلى مايمكن البرهان عليه بالعقل وذلك فى كتابه : "معقولية المسيحية The reasonableness of Christianity", London, 1695 .

(٣٧) Leibniz , Theodicy, p . 88 .

ويرفض ليبنتز أية محاولة تنكر هـذا التمييز، حتـى ولو كانت هذه المحاولـة مـن أجـل جعـل المسـيحية غـير غامضة وفى متناول المبادىء العقلية؛ إذ يشـير إلـى كتـاب لمؤلف إنجليزى بعنوان "المسيحية ليسـت مكتنفـة بالأسـرار Christianity not Mysterious "، وفـى هـذا الكتـاب يعمـل المؤلف على تفسير العقائد المسيحية تفسـيرا عقلانيـا ينـتزع عنها الغمـوض والإلغـاز، ويحـاول التغلـب علـى تميـيز اللاهوتيين بين ما هو فوق العقل ومـا هـو منـاقض للعقـل؛ لبيان أن المسيحية ليست فوق العقل وفى الوقـت نفسـه غـير مناقضة للعقل. لكن هـذه المحاولـة لاقـت الاسـتنكار كمـا يشير ليبنتز، ومن ثم فهو يقـول: " ولايبـدو لـى أن المؤلـف استطاع أن يضعف هذا التميـيز البتـة [٣٨].

ولم يكن بيل موافقا علـى هـذا التميـيز الشـائع[٣٩]، ولكنه ميز هو وسورين Saurin بيـن مقولـة " أن كـل عقـائد المسيحية تطـابق العقـل All the dogmas of chistianity are in conformity with reason و"مقولة " أن العقـل البشـرى يعـرف أن عقائد المسـيحية تطـابق العقـل The human reason Know

---

[٣٨] Ibid . P . 106 .

[٣٩] وذلك فى كتابه : "الرد على تساؤلات الأسقف Of the Reby to the Questions of provincial" vol. 111, Prara. 158.

انظر:

Leibniz , Theodicy , P. 106 .

" they are in conformity with reason " وقد وافق بيل على المقولة الأولى، بينما أنكر الثانية. ويتفق ليبنتز مع بيل إذا كان يقصد بتطابق العقيدة مع العقل "أننا يمكننا أن نبرهن على ذلك إذا دعتنا الحاجة، عن طريق إظهار أنه لايوجد تناقض بين العقيدة والعقل، رافضين بذلك اعتراضات هؤلاء الذين يؤكدون أن هذه العقيدة سخافة منافية للعقل"(٤٠) وفي الوقت نفسه يرى ليبنتز أن بيل قدم آراءه في هذا الموضوع بأسلوب غير مقنع على الإطلاق؛ لأنه يقر تماما بأن أسرار الدين المسيحى منسجمة مع العقل الكونى الأعلى(الله)، ومع ذلك ينكر بيل أن تكون تلك العقائد منسجمة مع العقل الجزئى الذى يوظفه الإنسان للحكم على الأشياء. لكن ليبنتز يرى أن هذا العقل الجزئى الذى نملكه إنما هو منحة الله لنا، ويكمن فيه النور الطبيعى الذى يظل معنا وسط الضلال؛ ومن ثم فهو منسجم مع العقل الإلهى الكامل، ولكنه يختلف عنه فحسب مثل اختلاف المتناهى مع اللامتناهى، ومثل اختلاف نقطة الماء عن المحيط. لذا فليبنتز يذهب إلى "أن أسرار الدين قد تسمو عليه، ولكنها لا تتناقض معه؛ فالشيء لايمكن أن يتناقض مع الجزء دون أن يتناقض مع الكل "(٤١) .

---

(٤٠) Ibid , P. 107 .

(٤١) Ibid .

التوفيق بين الطوائف المسيحية المتنازعة

التوفيق بين الطوائف المسيحية المتنازعة

سعى ليبنتز فى لاهوته إلى التوفيـــق بيـــن الطوائــف المسيحية الأوربية من كاثوليكية وبروتستانتية وغيرهما؛ حيــث عمل من جهة على التوفيق بين تيارى البروتستانتية الرئيسـيين: اللوثرية والكلفنية، ومـــن جهــة أخــرى بيــن البروتســتانتية والكاثوليكية والطوائف الفرعية الأخرى، وإن كان التوفيق بيــن الطائفتين الكبيرتين: البروتستانتية والكاثولكية، هو الذى شــغل المساحة الأكبر من تفكيره وجهده ؛ لأن خلافات هاتين الطائفتين تمثل سببا جوهريا من أسباب النزاع والحروب بين دول أوربــا، وتقف كحاجز أمام الائتلاف السياسى، وتعطــل عمليــة إقــرار السلام فى أنحاء أوربا. وكان ليبنتز ينظر إلى تلــك الخلافــات على أنها خلافات ثانوية تمّ تضخيمها بدون أسباب كافية؛ لدرجة أصبح معها مسيحيو أوربا بمثابة الأخوة الأعداء الذيـــن تندلــع بينهم الحروب والمناوشات . ومن ثم لابد من إعـــادة الوحــدة المعنوية التى افتقدتها المسيحية فى أوربا منـــذ انــدلاع حركــة الإصلاح البروتستانتى، والقضاء على الصراع الذى تجدد بيــن الكاثوليكية والبروتســتانتية منــذ ١٦٦٠، لأن اســتمرار هــذا

الصراع سيضعف الإيمان ، ويفتح الباب على مصراعيه أمام طعنات الملحدين الموجهة الى العقيدة مما يعرض الكنيسة للخطر. ومن ثم ينبغى العمل بجدية على اتحاد المسيحيين، وتوجيه جهودهم نحو مقاومة الإلحاد بدلاً من استفراغها فى المنازعات بين بعضهم البعض .

ومما يلفت الانتباه أن ليبنتز رغم تمركز جهوده حول اتحاد المسيحيين ضد غيرهم؛ فإنه فى لحظة استثنائية غير متكررة فكر فى إيجاد صيغة عقائدية توحد بين الأديان الثلاثة : المسيحية واليهودية والإسلام، ولم تكن هذه الصيغة مفصلة وشاملة، حيث اقتصر ليبنتز على تقديم صيغة دعاء توفيقى بين الأديان والطوائف يمكن أن يتقبلها أى مؤمن ويؤديها فى صلاته. واقترح ليبنتز هذه الصيغة وقدمها إلى آرنو ونصها : "اللهم، أنت الأحد، وأنت الصمد ، أنت القادر على كل شىء ، وأنت الإله الواحد الحقيقى المستولى على كل القلوب، وإنى أنا المخلوق الحقير ، أومن بك وآمل فيك، أحبك أكثر من كل شيء، وأصلى لك، وأمجدك، وأحمدك، وأسلم روحى إليك. اللهم اغفر لى ذنوبى، وجُد علىّ جودك على كل الناس ، بما تراه

إرادتك مفيدا لخيرنا فى الدنيا، ولخيرنا فى الآخرة، وقنا كل شر. آمين "[٤٢].

وماكان موقف آرنو - كما أشرنا سابقاً - إلا موقف الرفض والاستهجان؛ لأن هذه الصيغة لا تشير إشارة صريحة إلى اسم السيد المسيح. ولم يعاود ليبنتز مثل هذه المحاولة التوفيقية بين الأديان؛ ومن ثم فإنها محاولة استثنائية، أما القاعدة فى جهود ليبنتز فقد كانت هى التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية، وتجلت تلك الجهود فى كثير من مراسلاته وأسفاره وأحاديثه وكتاباته البحثية، ويمكن القول إن أكثر مصنفات ليبنتز بلورة لأفكاره بجوار كتابه الأشهر" العدالة الإلهية" ، هو بحثه "النظام اللاهوتى Systema Theologicum "، ومن المرجح أنه دونه فى أجواء مؤتمر هانوفر ١٦٨٣ الذى جمع الكاثوليك والبروتستانت من اجل مناقشة المبادىء التى يمكن أن يتم بناء عليها الاتحاد الكنسى بين كل الطوائف المسيحية[٤٣]. وقد حدد ليبنتز منهجه فى ٠التوفيق بأنه موضوعى وغير منحاز ومتجرد من الروح الحزبية، وغير ملتزم بأية التزامات عقائدية مسبقة، ويعلن ليبنتز

---

[٤٢] بول هازار، أزمة الضمير الأوربى ، ص ٢٢٤ .

[٤٣] عقد هذا المؤتمر بإشراف الأسقف سبينولا الذى قدم للمجتمعين من الكاثوليك والبروتستانت قواعد التوحيد الكنسى لمناقشتها من أجل الوصول إلى مشروع يوحد بينهم. اما ليبنتز فقد ذهب أبعد من الجميع فى محاولة التوفيق حيث كتب " النظام اللاهوتى" الذى قدم فيه تصورا شاملا لصيغة الاتحاد . انظر :

Meyer, Leibniz and the seventeenth century Revolution. P.77 .

أنه سيلتزم بهذا النهج متقمصا روح رجل آت من كوكب آخـــر لايعلم شيئا عن الخلافات الدينية السائدة بين الفرق المســـيحية، وأنه سينظر إلى العقائد نظرة تلميذ مبتـــدىء متواضـــع يؤمـــن بالكتاب المقدس والميراث الدينى والعقل والحقائق المؤكدة. يقول ليبنتز: "بعد طلب المساعدة من الرب بواسطة الأدعية والصـــلاة الخاشعة المطولة، نابذا كل روح طائفية متحزبة بقـــدر طاقـــة البشر، نظرة إنسان آت من عالم آخر لايدرى أى شـــىء عـــن الطوائف المختلفة، إلى الخلافات الدينية كتلميذ مبتدىء متواضـــع غير ملتزم بأى التزام -- توصلت من خلال التفكير العميق إلـــى النتائج التى أشرحها هنا (٤٤).

وتتمثل تلـــك النتـــائج التـــى توصـــل إليـــها فـــى: الإيمان بـــالرب، وخلـــق العـــالم، والاعتقـــاد فـــى الخطيئـــة الأصلية لآدم وحـــــواء ، والخـــلاص، والفـــداء، والتطـــهير، والإيمان التام بالقربان المقـــدس الـــذى يتحـــول فيـــه الخـــبز والخمر إلى جسد المسيح ودمـــــه تحـــولا حقيقيـــا، والاعتقـــاد فى الطقوس الكاثوليكية ، بكـــل مـــا تتضمنـــه مـــن موســـيقى وشعر وملابس وعطـــور وأوانٍ مقدســـة وتمـــاثيل وبخـــور، والاعتقاد فى شفاعـــة الأولياء والقديسين والنـــــذور الموجـــه

---

(٤٤) Hazard, Critical Years. P. 223 .

الى الأديرة، والاعتراف بالسلطة المقدسة للكنيسة زمنيا وروحيا [٤٥].ويزعم ليبنتز أن أى انسان غير متعصب لابد أن يؤمن بكل تلك العقائد ، حيث إنه شخصيا آمن بها لأن "الكتاب المقدس والميراث الدينى الأصيل وما يستلزمه العقل الصحيح وشهادة الوقائع الثابتة تتآزر كلها فيما يظهر لى فى إقناع عقل كل امرىء غير متعصب"[٤٦]ويرى جوردان فى كتابه "إعادة توحيد الكنائس: دراسة لليبنتز ومحاولته الكبرى" أن الميل الواضح للكاثوليكية فى هذا البحث من المحتمل أن يشكك فى نسبته إلى ليبنتز، لكن جوردان يعود ليؤكد صحة نسبته إليه وأنه لم يعد يشك أحد من المعاصرين فى هذه النسبة [٤٧]. ومن الجدير بالذكر أن هناك من يرى أن هذا البحث دليل على أن ليبنتز قد اعتنق الكاثوليكية بشكل غير معلن خاصة وأن هذا البحث من كتابات ليبنتز التى لم تكتشف،إلا بعد وفاته، وقد خطه دون أن يكتب اسمه عليه.

---

(٤٥) Jordan, G.J, Reunion of the Churches: Astudy of G.W. Leibnitz and his Great A ttempt, P. 81-91.

(٤٦) Hazard , Critical Yeaes, P . 223 .

(٤٧) Jordn, Reunion of the churches, Astudy of G.W. Leibnitz and his Great A ttemptt, P.97.

ويقول بهذا الرأى أول ناشر نشره سنة ١٨١٩، وقد نشره كبرهان على اعتناق ليبنتز للكاثوليكية. وربما يكون من الدال هنا أن نعرف أن هذا الناشر كان كاثوليكيا[٤٨]. ومع أن هذا البحث "النظام اللاهوتى" يشتمل على ميل واضح للكاثوليكية، فإن هذا الميل، ربما يمكن فهمه على أنه أسلوب سياسى من أجل التقريب بين الطائفتين ، لاسيما وأن الثقل التاريخى والسياسى للكاثوليكية ربما دفعه لهذا الميل كنوع من التنازل الدبلوماسى اللبق. ومن غير المستبعد أنه فعل هذا لاسترضاء الامبراطور الكاثوليكى فى فيينا طمعا فى الالتحاق بالعمل لديه .

وقد فشلت هذه المحاولة التوفيقية فشلاً ذريعاً، لكنه لم يقع فى الإحباط؛ حيث عاود محاولاته، ونذكر من بين هذه المحاولات مراسلاته مع بوسويه بين سنة ١٦٩١ وسنة ١٦٩٤، ومع أن بوسويه أعطاه بصيصاً من الأمل فى تأييد مشروعه فى اتحاد الكاثوليك والبروتستانت[٤٩]. فإنه انتهى إلى التأييد الكامل لقرارات الكنيسة التى

---

(٤٨) Meyer, Leibinz and the Seventeenth Century R evolution, P.77.

(٤٩) Hazard, Critical Years,P.228.

اعتبرت البروتستانت مهرطقين، وأن الكنيسة معصومة دوماً؛ ومن ثم لامجال للتقريب بين الطائفتين، والحل الوحيد هو أن يتراجع البروتستانت تراجعاً تاماً عن منظومتهم العقائدية التى أدانتها الكنيسة(٥٠). وأحدث موقف بوسويه إحباطاً شديداً عند ليبنتز؛ ومن ثم عمل على توجيه جهوده وجهة أخرى، والكف عن محاولة التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية؛ حيث كرس نشاطه للتقريب بين فرق البروتستانتية ولاسيما اللوثرية والكلفنية. لكن باءت هذه المحاولة بدورها بالفشل؛ فلم يستطع إقناع أحد، وثبطت عزيمته نهائيا.

---

(٥٠) Ibid ., P. 230 .

الأقانيم الثلاثة

الأقانيم الثلاثة

رغم كل تحديات الشك التى واجهتها عقيدة التثليث فى القرن السابع عشر، ظل ليبنتز يدافع عنها وفق التقليد اللاهوتى المسيحى ضد اعتراضات العقلانيين الخلص. ومع هذا لم يحاول أن يثبتها ببراهين محكمة وضرورية، بل اكتفى فقط بدفع الشكوك والرد على التفنيدات فى كل كتاباته التى تعرضت لهذه العقيدة. وكتب وهو فى سن التاسعة والعشرين تقريباً نصاً بعنوان "الدفاع عن الثالوث Defensio trinitatis" ، وكان هذا الدفاع ضد منكرى الثالوث، أى ضد طائفة السوسينيين socinians الذين أنكروا الثالوث لأنهم لايقبلون أية عقيدة تتعارض مع نظام الطبيعة. ويذكر ليبنتز فى "أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى" أنه قرأ ذات مرة لستجمان Stegmann السوسينى نصاً ميتافيزيقياً(٥١).

---

(٥١) هو كريستوفر ستجمان Christopher Stegmann وهو غير جوشوا استجمان Joshua Stegmanm (1588 1632) الذى كان لوثرياً. والأول المذكور أعلاه فى المتن كان سوسينياً من مفكرى ألوهية المسيح، وقد أشار إليه ليبنتز فى "العدالة الإلهية" على أنه كريستوفر ستجمان، وهذا يؤكد تحديدنا لاسمه الأول. ولقد كان هو الأخ الأصغر لجواكيم ستجمان Goachim stegmann الذى كان كذلك من القائلين بعدم ألوهية المسيح وكتب عددا من الأعمال الرياضية واللاهوتية. أما كريستوفر فقد كتب عملاً بعنوان: Dyas Philosophica وربما يكون هو النص الميتافيزيقى الذى الذى أشار إليه ليبنتز فى المتن . انظر الحاشية التى كتبها ألفريد ج. لانجلى فى :
Leibnitz , New Essays,, P. 585.

وإذ يرفض ماجاء فى هذا النص فإنه يؤكد أن السوسيينين: "قد تسرعوا جداً فى رفض أى شىء غير منسجم مع نظام الطبيعة، طالما لم يستطعوا أن يبرهنوا بشكل جازم على استحالته"(٥٢).

وفى الوقت نفسه الذى يستنكر فيه ليبنتز موقف منكرى الثالوث، يستنكر أيضا موقف خصومهم الذين تطرفوا فى إثبات هذه العقيدة؛ إذ "دفعوا السر إلى حافة التناقض؛ وفى هذه الحالة إنهم يلطخون الحقيقة التى يحاولون الدفاع عنها" (٥٣). ويقدم ليبنتز مثلاً على ذلك بالبحث الذى قرأه للأب فابرى Fabry (٥٤). بعنوان "الخلاصة اللاهوتية Summa theologie" ، والذى أنكر فيه - مثل بعض اللاهوتيين الآخرين - المبدأ العظيم القائل: " ان الأشياء المساوية لشىء ثالث يكون كل منها مساويا للآخر".

---

(٥٢) Ibid ., P. 586.

(٥٣) Ibid .

(٥٤) فابرى (1607 1688) ، رياضى فرنسى ، وفيلسوف، من الجزويت، وصار كبير الكهنة المكلفين بالنظر فى الخطايا التى يحتفظ البابا بحق الحكم فيها، وذلك فى مجمع التوبة الرسولى بروما (وهى محكمة كاثوليكية مهمتها النظر فى القضايا الروحية الخاصة). وله مؤلفات عديدة، من بينها الكتاب الذى أشار إليه ليبنتز أعلاه الذى كتبه سنة ١٦٦٩ فى ليونز Lyons . انظر حاشية لانجلى : Ibid .

ومن وجهة نظر ليبنتز فإن الأب فابرى يمنح الفرصة المناسبة للخصوم دون أن يفكر فى هذا، ويحطم كل طرق الاستدلال على اليقين. وفى المقابل يؤكد ليبنتز أن من الأحرى القول بأن هذا المبدأ قد طّبق تماماً بشكل سيئ، بدلاً من المسارعة برفضه تماماً؛ لأن الإيمان لايمكن أن يضع نظاماً عقائدياً يناقض مبدأ " بدونه تصبح كل عقيدة وإثبات ونفى تافهة. ولذلك يلزم أن تكون كل قضيتين صادقتين فى الوقت نفسه غير متناقضتين كلية، وإذا كانت أ – ج ليستا هما الشىء نفسه، فمن الواضح على نحو ضرورى أن تكون ب المتطابقة مع أ مأخوذة من ناحية أخرى غير تلك الناحية التى أُخذت بها ب المتطابقة مع ج"[٥٥].

إن ليبنتز حريص على ذلك المبدأ العظيم الذى رفضه الأب فابرى بحجة الدفاع عن عقيدة الثالوث، مثلما هو حريص على عقيدة الثالوث؛ ومن ثم فإنه حاول رفع التناقض بين ذلك المبدأ وعقيدة الثالوث على النحو الذى رأيناه أعلاه فى "أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى"، وقام بالمحاولة نفسها فى "العدالة الإلهية"؛ حيث قال: "إن هذا المبدأ يشكل العنصر الأساسى لكل

---

(٥٥) Ibid , P. 587 .

المنطق، وإيقافه يعنى أنه لايمكننا من الآن فصاعداً منطقة أو تبرير العقيدة. وعليه فحينما يقول أحد إن الآب هو الله، وإن الابن هو الله، وأن الروح القدس هو الله، ورغم هذا فلا يوجد إلا إله واحد، وأن الثلاث يختلفون عن بعضهم البعض ، فإن ذلك لابد أن يجعل المرء يعتبر أن كلمة الله لها معنى فى البداية غير ذلك المعنى الوارد فى نهاية التقرير، إن معنى الله بالنسبة للآب ليس هو المعنى نفسه بالنسبة للروح القدس. ويدل المعنى فى الواقع على الجوهر الإلهى، ثم يدل على الألوهية المشخصة أو الشخص الإلهى. وعموما ينبغى على المرء أن يكون حذرا ولايتخلى عن الحقائق الضرورية والأزلية بقصد دعم الطقوس أو الأسرار الدينية، خشية أن يتخذ أعداء الدين من هذه الحجج ذريعة لشجب الدين وأسراره"(٥٦).

هذه كانت إحدى طرق ليبنتز للدفاع عن عقيدة الثالوث، وثمة طريقة أخرى تتمثل فى التمييز بين ماهو مناقض للعقل وماهو فوق العقل، أما النوع الأول فهو المناقض للحقائق الحتمية واليقينية المطلقة، والنوع الثانى هو المناقض فقط لما

(٥٦) Leibniz , Theodicy, PP. 87 8.

اعتاده الإنسان، ويتجلى عندما لايستطيع العقل أن يفهم عقائد المسيحية مثل " الثالوث المقدس والمعجزات التى اختص بها الله فقط"(٥٧). ويعد هذا التمييز بين ماهو مناقض للعقل وماهو فوق العقل، ضرورياً من أجل إنقاذ عقيدة الثالوث عند ليبنتز؛ لأنه يكفى القول بأنها فوق العقل حتى يقف العقل متواضعا أمامها معترفاً بعجزه عن فهمها، ومن ثم يقلع عن مناقشتها، ويتقبلها فى صمت.

وإذ يضع ليبنتز عقيدة الثالوث فوق العقل، فإنه يؤكد فى الوقت نفسه أنها غير مناقضة له. لكنه من ناحية أخرى يرفض أية محاولة فلسفية من أجل بيان تطابقها مع العقل بالبراهين العقلية والطبيعية؛ لأنه يخشى على العقيدة من مثل هذه المحاولات متسائلاً: ماذا سيكون الحال إذا جاء أحد وأثبت زيف وسخف البراهين الفلسفية على تطابق عقيدة الثالوث مع العقل؟ ولهذا فإنه يرى أن من الأفضل عدم إثبات الثالوث بالفلسفة ، والاكتفاء بالرد على اعتراضات الخصوم، أى أنه يفضل الدفاع عن أسرار المسيحية ضد الانتقادات بمنهج سلبى، إذ يكتفى ببيان عدم تناقضها مع العقل، ويرفض أية محاولة من أجل إثبات هذه

---

(٥٧) Ibid , . P. 88 .

الأسرار فلسفياً ببراهين إيجابية؛ خوفاً من بيان سخف وزيف هذه البراهين مستقبلاً. ومن هنا فهو ينبذ ويفند كل محاولة اجتهدت من أجل أن تفلسف العقيدة المسيحية في الثالوث أو غيره من الأسرار المستغلقة على الفهم الإنساني.. يقول: " لهذا استهجن اللاهوتيون المدرسيون ريموند لولي Raymond Luly لأنه شرع في إثبات الثالوث بواسطة الفلسفة كذلك بارثو لوميوس كيكرمان Bartholomaeus Keckermann الكاتب المنتسب إلى حزب الإصلاحيين الذي قام بمحاولة من النوع نفسه مع الأسرار نفسها، وكان الاستهجان الذي وقع عليه من جانب بعض اللاهوتيين المحدثين مماثلاً لما وقع على كيكرمان. لذا فإن الاستهجان سيقع على هؤلاء الذين سيحاولون تفسير أسرار الدين وجعلها مفهومة، ولكن المدح سيكون من نصيب هؤلاء الذين سيكدحون من أجل مناصرة تلك الأسرار الدينية ضد اعتراضات الخصوم"(٥٨) .

(٥٨) Ibid.. P. 106.

المعجزات

المعجزات

بينما كانت الطريقة العلمية في النظر إلى الطبيعة تواصل تقدمها على حساب الطرق اللاهوتية، وفي الوقت الذى أخذت فيه التجربة مكاناً لها بين معايير المعرفة، كان ليبنتز يتلمس السبل من أجل إنقاذ اللاهوت. وبما أن المعجزات إحدى ركائز المسيحية، فلا مجال للتردد والتراخى أمام الضربات الشكية الموجهة إليها استناداً للتقدم العلمى الذى أحرزته العلوم فى النظر إلى الطبيعة باعتبارها محكومة بآلية مطردة لايمكن خرقها، وخاضعة- وبخاصة فى أعين علماء الميكانيكا – للقوانين الثابتة(٥٩).

---

(٥٩) جاء مذهب الربوبية Deism كأقوى اتجاه معارض للمعجزات؛ حيث كان هذا المذهب من آثار تقدم الطريقة العلمية فى النظر إلى الطبيعة باعتبارها محكومة بقوانين ثابتة، ومن ثم لامجال للمعجزات ، ولا للكتاب المقدس ليكون إعلاناً عن الله، ولا للنبوة، ولا للعناية الإلهية التى تحتم أن يكون فيها المسيح هو الله الظاهر فى الجسد؛ فالمسيح لم يكن سوى معلم أخلاقى، والعبادة لاينبغى أن تكون إلا لله ، والله نفسه إله متسام ترك خليقته بعد أن خلقها لتحكمها القوانين الطبيعية التى يمكن للعقل البشرى أن يكتشفها ويفهمها، ولقد وضع كذلك مبادئه الأخلاقية فى الطبيعة البشرية التى يمكن اكتشافها كذلك، ويجب الحياة وفقاً لها؛ حيث إن هناك خلوداً، وعلى كل إنسان أن يلتزم بالأخلاق-

وإزاء هذا الوضع المأزوم الـــذى صـــار فيـــه الإيمـــان بالمعجزات، لم يدع ليبنـــتز ســـبيلاً لاهوتيـــاً ممكنـــاً لإخـــراج هذه العقيدة اللاهوتية من أزمتـــها إلا وســـلكه[٦٠]. ومـــع هـــذا فإنه لم يعمل على تقديـــم تـــأويل جديـــد للمعجـــزات يجعلـــها متوافقة مع حقيقة اطراد الطبيعة، بـــل عمـــل علـــى تفســـير

= حتى ينعم بالثواب ويتجنب العقاب. ولم يكن إنكار المعجزات اســـتناداً إلـــى الطريقـــة العلمية فى النظر إلى الطبيعة مقصوراً على مذهب الربوبية القائل بالدين الطبيعى، بـــل كان أمراً يجد له أنصاراً من اتجاهات فلسفية شتى .

انظر:

S.G.F.Brandon (Editor), A Dictionary of Comparatiave Religion, London, Weidenfeld and Nicolson 1970, P. 228.

(٦٠) لم يكن ليبنتز وحده الذى هبّ للدفاع عن المعجزات والإيمان المسيحى، بـــل هـــبّ كثيرون مثل ويليام لو William Law (١٦٨٦- ١٧٦١) فى كتابه "دعوة جادة للتكريس والقداسة" (١٧٢٨)، وكتابه "قضية العقل" (١٧٣٢) الذى أكد فيه أن الإنسان لا يستطيع أن يستوعب كل الحقيقة الدينية باستخدامه العمليات العقلية وحدها لأن الله يفوق العقل. وأظهر جوزيف بتلر Joseph Butler (١٦٨٢ – ١٧٥٢) فى كتابه "أطروحة الديـــن" (١٧٣٦) أن الحجج التى استخدمها الربوبيون ضد المعجزات قابلة للتفنيد، كما أن حججهم ضدد إله الكتاب المقدس يمكن أيضا استخدامها ضد إله الطبيعة لو أننا اعتمدنا علـــــى العقـــل البشرى كمـــرجع نهائى. واستخدم وليم بالى Willam Paley (١٧٤٣- ١٨٠٥) الدليل العقلى ليثبت وجود الله الذى أعلن ذاته فى الكتاب المقدس، والمسيح والمعجزات .

انظر:

Kirnz,E., Christianity through the centuries, michigan, Grand Rapids, 1981, PP. 441-2.

هذه الاطراد تفسيراً لاهوتياً لصالح الرؤية التقليدية للمعجزات فى اللاهوت المسيحى؛ حتى لو كان على حساب الحقائق التاريخية التى أكدها النقد التاريخى للروايات التى تناقلها رواة أحاديث المعجزات .

فليبنتز يقارن بين الإيمان والتجربة على أساس أن الإيمان يعتمد على أولئك الذين تلقوا المعجزات؛ لأن الوحى تأسس بناء على تجارب تلك المعجزات، كما انه وصل إلينا- فيما يرى ليبنتز - بناء على الأحاديث الموثوقة سواء ماجاء فى الكتاب المقدس او من روايات الحفاظ. هكذا يتحدث ليبنتز عن "الأحاديث الموثوقة" متجاهلاً النقد التاريخى الصارم الذى وجهه سبينوزا إليها[٦١]، وصارفاً النظر عن محاولة إنقاذها من براثن هذا النوع من النقد، ربما لشعوره بصعوبة ذلك. وعوضا عن محاولة صدّ هذا النقد التاريخى بنقد للنقد، فإنه

---

(٦١) ذلك رغم معرفته بأفكار سبينوزا من خلال الأحاديث المطولة التى جرت بينهما، وكذلك من خلال المراسلات والاطلاع على المؤلفات .

انظر:

Elwes,R.H.M., ATheologicoo spinoza york, Dover Publications, inc. 1951, P.xvi.

محاولة صدّ هذا النقد التاريخى بنقـد للنقـد، فإنـه يسـتحضر دليلا مخادعاً لمحاولـة إقنـاع القـارىء بموثوقيـة تلك الروايات؛ فيقول:"يشبه هذا إلى حـد مـا اعتمادنـا علـى خـبرة هـؤلاء الذيـن شـاهدوا الصيـن؛ فعلـى مصداقيـة رواياتهم يتوقف تصديقنا لتلـك العجـائب فـى تلـك البـلاد البعيدة عنا" [٦٢]. أما لماذا يُعـدّ هـذا الدليـل مخادعـاً، فـهذا موضعه القسم الأخير من البحـث .

ومحاولة تبرير ليبنتز للمعجزات بوصفها دوافع للإيمـان لاتنسيه الرؤية اللاهوتية التقليدية – وهى غير مؤسسة على دليل عقلى أو تجريبى – التى تجعل الـروح القـدس هـو المحـدِّد الرئيسى الحاض على الإيمان؛ يقول:"لابد أن نضع فـى الحسبان أيضا الميل الباطنى للـروح القدس الذى يستحوذ على الأنفس، ويستميلها ويحثها تجاه الخير المتمثل فى الإيمـان والمحبة، ويكون هذا دائما دون الحاجة للدوافـع التـى تـبرر الإيمان"[٦٣].

---

(٦٢) Leibniz , Theology , p. 73.

(٦٣) Ibid .

ويميز ليبنتز بين نوعين من الحقائق العقلية، في إطار بيان أن الإيمان بالمعجزات غير معارض للعقل؛ فيقول بأن حقائق العقل نوعان :

أولهما – مايسمى بالحقائق السرمدية: وهى فى مجملها ذات ضرورة تامة، ونقيضها يفضى إلى التناقض، مثل كل الحقائق التى لها ضرورة منطقية أو ميتافيزيقية أو هندسية مما لا يستطيع أن ينكره أحد دون أن يقع فى سخافات منافية للعقل(٦٤).

ثانيهما – الحقائق الممكنة، أو الحقائق العارضة: وهى قوانين قضت بها مشيئة الله للطبيعة، ونتعلمها إما بعديا Apposteriori أو قبليا Aprioir (٦٥). وذلك بالنظر فى ملائمة

---

(٦٤) قدم ليبنتز بعض الأمثلة على الحقائق السرمدية Eternal Truths ، وهى: (أ) كل مبادىء الحساب والهندسة، مثل: 2+3 = 5 ، والمكان له ثلاثة ابعاد؛ (ب) كل مبادىء المنطق، مثل: أى شىء يكون هوهو، القضية إما أن تكون صحيحة أو خاطئة؛(ج) مبادىء العدالة، والخير، والجمال؛ (ء) وجود الله؛ (ه) بعض نظريات المونادولوجيا. انظر :

Wedberg, A.AHistory of Philsophy, Oxford , clarendon Press, 1982, Vol . 2 .

(٦٥) قدم ليبنتز الأمثلة التالية على الحقائق الممكنة أو الطارئة Contingent truths :

(أ) أى قضية صحيحة تقرر أن موضوعا فرديا أو أكثر – غير الله – موجود؛ =

الأشياء لبعضها البعض ، وانسجامها معاً انسجاماً تامــاً، وهــذا الانسجام هو السبب فى اختيارها وانسجام الأشياء وتلاؤمها لــه أحكامه وأسبابه، ومع ذلك فإنها وُجدت بناء علـــى اختيــار الله الحر، ولم تأت بناء على ضرورة هندسية كانت هى السبب فـــى تفضيلها. ومن الممكن القول – فيما يرى ليبنتز – أن الحقـــائق الممكنة لم تقم فقط على الفهم الإلهى، ولكن قامت كذلــك علـــى الاختيار الحر(٦٦). والضرورة الفيزيائية هى التى تحـــدد نظـــام قوانين الطبيعة وتكوّن قواعد التجربــــــــــة. ولقـــد جـــاءت القوانين العامة الأخرى بمشيئة الله فى الأشياء التـــــى وهبـــــها الله وجودها، ولكن الله لم يضع قوانين الأشياء هكذا دون ســـبب؛ لأنه لم يختر شيئا بدافع الهوى أو بالمصادفة واللامبالاة، وإنمـــا الأسباب العامة للصلاح والنظام هى التى حثته على الاختيـــار. ومع ذلك فالله ليس ملتزماً بذلك فى كل الأحوال كقاعدة مطلقـــة،

= مثل القضية التى تقـــول :أنا موجود؛ (ب) أى قضية صحيحة تُقرر أن موضوعاً فردياً موجوداً أوأكثر – غير الله – له مجموعة من الصفات المميزة، مثل قوانين الحركة فى الميكانيكا. انظر: Ibid

(٦٦)

Leibniz Metaphysics and philosophy of science , Edited by R.S. woolhouse, oxford, Oxford University press, 1981,P.65 .

بل" ربما يتجاوز تلك الأسباب فى بعض الحالات"(٦٧)، وتجاوز تلك الأسباب مؤسس على مؤسس على كون "حقائق الواقع عرضية(٦٨)". فحقائق الواقع أو الحقائق الفعلية غير الحقائق التى يضعها العقل التى يتضمن نقيضها تناقضاً، أما الحقائق الفعلية فهى حقائق جائزة لا يتضمن نقيضها تناقضاً(٦٩). ومن ثم فهى تسمح بظهور المعجزات التى تشتمل على تجاوز الأسباب الطبيعية. وهنا ينبغى التنويه مجدداً بأن الحقائق الأزلية أو السرمدية هى وحدها ذات الضرورة التامة، ونقيضها يفضى إلى التناقض، ومن أمثلتها- كما أشرنا سابقا- الضرورة المنطقية والميتافيزيقية والهندسية. وهى غير الحقائق الممكنة التى قضت بها مشيئة الله للطبيعة باختياره الحر ومراعاته لمبدأ الملاءمة أو اختيار الأصلح، ومن هنا فهى متوقفة على إرادته، ويمكن تجاوزها فى بعض الحالات. وهذا الفرق ينبغى التأكيد عليه؛

---

(٦٧) Leibniz , Theodicy , P.73.

(٦٨) ليبنتز، المونادولوجيا والمبادىء العقلية للطبيعة والفضل الإلهى ، ترجمة د. عبدالغفار مكاوى، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ .

(٦٩) إميل برهييه، تاريخ الفلسفة: القرن السابع عشر، ترجمة جورج طرابيشى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٣، ص ٢٩٥- ٢٩٦ .

لأن هناك مَنْ يخلط بين الحقائق الأزلية والقوانيـــن العلميــة للطبيعة عنــد ليبنتز، فيظن الثانية تدخل فى حكم الأولى، بينمـــا فرّق ليبنتز بينهما كما رأينا أعلاه؛ فالأولى مطلقة غــير قابلــة لأى استثناء، بينما الثانية لايصدق عليها هـــذا، لأن الله- كمـــا يقول ليبنتز -: "يمكنه أن يعفى مخلوقاته من القوانين التى قضى بها عليها، ويجعلها تتحمل مالا تستطيع طبيعتـــها أن تتحملــه، وذلك بمعجزة من عنده تجعلها ترتفع إلى مستوى الكمال والقدرة التي هى أسمى ممـــا تكتسبه بطبيعتها، تلك القدرة التى يطلــق عليها علماء اللاهوت "القوة الامتثالية" وتعنى القوة التى تكتسـبها الأشياء بالإذعان لأمر الله"(٧٠).

ومن الممكن أن "يظهر الله المعجزات بواسطة الملائكـــة، وليس فى هذا خرق لقوانين الطبيعة، بل يماثله مايقوم به النـــاس من مهارة فى الطبيعة. ومهارة الملائكة تختلف عنا فى درجـــة الكمال فقط "(٧١).

إذن هناك نوعان من المعجزات:

---

(٧٠) Leibniz, Theodjcy, P. 74 .

(٧١) Ibid .

الأول – معجـزات إلهيـة تخـرق قوانيـن الطبيعـة وتتجاوز الأسباب .

الثـانى – معجـزات ملائكيـة تحـدث بـأمر الله، ولاتشتمل على أى خرق لقوانين الطبيعة بل هـى مـن قبيـل المهارة والفطنـة .

ويؤكد النوع الأول أن القوانين العلمية عرضة للخـرق؛ إذ إن الله يوقفها من آن لآخر لكى تظهر معجزاته. ويجزم ليبنـتز بذلك فـى قوله :" تظل قوانين الطبيعة موضع اعفـاء مـن صاحب الشريعة، بينما الحقائق السرمدية ومنها الحقائق الهندسية على سبيل المثال لاتسـمح بالاعفـاء أو التحلـل أو الخـرق، والإيمان لايمكنه أن ينقاضها"(٧٢) .

من الواضح مجدداً أن ليبنتز يفرّق بين قوانيـن الطبيعـة المعرضة للخرق لإظهار المعجزات، والحقائق السرمدية التـى ليست كذلك، مما يؤكد خطأ مَنْ خلط بينهما فى فهمـه لموقـف ليبنتز .

---

(٧٢) Ibid .

ويعـترض موقـف ليبنـتز مـن المعجـزات صعوبـة مفادها:" إذا كان كل شـيء مرتـب مـن ذى قبـل فـإن الله لايمكنه أن يفعل المعجزات" (٧٣)، ولكـن ليبنـتز يذلـل هـذه الصعوبة على أساس أن المعجزات التى تحـدث فـى العـالم هى نفسها كانت منطوية وممثلـة كممكـن فـى نفس العـالم حينما كان فى حالته الممكنة. وقـد نفـذ الله تلـك المعجـزات عندما اختار هذا العالم؛ وهو بهذا الاختيار قـد قضـى بتنفيـذ تلك المعجـزات(٧٤).

ومن المعلوم أن آرنو اعترض علـى فلسـفة ليبنـتز فى المونادولوجيا لأنها تتنـافى والإقـرار بـالمعجزات. لكـن ليبنتز كان حريصا على حذف أى خلاف بيـن نظريتـه فـى المونادولوجيا والرؤية المسـيحية للكـون، ولذلـك رد علـى اعتراض آرنو بالجواب الآتـى: " معلـوم أننـا نسـتطيع، إذا علّمنا نقاطا على سطح ما بشكل أو بـآخر، أن نحصـل علـى معادلة المنحنى الـذى يحتويـها ويعلـل مواقعـها؛ فلنفـرض

---

(٧٣) Ibid .,P.152 .

(٧٤) Ibid .

على هذا الأساس سلسلة لاحدّ لها من أحداث يخضع بعضها للقوانين الطبيعية، على نحو ماهى معروفة لنا، بينما بعضها الآخر لايخضع لها، أى أنها أعجوبية خارقة؛ فيتعين علينا، فى هذه الحال، أن نتصور، فى اللاتناهى الإلهى، قانوناً للسلسلة بحيث يحتوى هذه الأحداث وتلك على حد سواء، إذن فالأحداث الأعجوبية، التى تشوش مانسميه بالنظام الطبيعى، تتدرج على العكس فى نظام الكون، وإنه لمما يتنافى والصفات الإلهية ألا تدخل فيه "(٧٥) .

---

(٧٥) برهييه ، تاريخ الفلسفة: القرن السابع عشر ، ص ٣١٨ .

الطقوس الكاثوليكية والنذور والشفاعة

الطقوس الكاثوليكية والنذور والشفاعة

لم يجد ليبنتز وهو بروتستانتى لوثرى غضاضة فى تسويغ الطقوس الكاثوليكية بكل مافيها من مظهرية، وكأنه يكرس تحول الدين من جوهره الروحى الخلاق إلى وضعية شكلانية، تلك الوضعية التى انتقدها كثير من الفلاسفة الكبار، مثل : هيوم ، وكنط ، وهيجل. ويمكن فهم تسويغ ليبنتز للطقوس الكاثوليكية فى إطار محاولة تقريب المسافات بين الكاثوليك والبروتستانت من ناحية، والرد على منتقديها من العقلانيين من ناحية ثانية، والدفاع عن النظام الكنسى الرومانى باعتبار أنه أساس الكنيسة العالمية ولايستوجب سخط أو ازدراء البروتستانت من ناحية ثالثة .. يقول :

" على هذا النحو، فإن الألحان الموسيقية، وانسجام الأصوات الرقيق، وشاعرية الترانيم، وبلاغة (أوجمال) الطقوس الدينية، وتلألأ الأضواء، وعبق العطور، وفخامة الثياب، والأوانى المحلاة بالجواهر الكريمة، والهدايا الغالية، والتماثيل والصور التى تحيى الشعور الدينى، وقواعد العمارة، والتنسيق الفنى، وروعة المواكب الاحتفالية، والستائر والزينات القيمة

التى تجمل الطرقات، وأصوات النواقيس؛ وخلاصة القـــول أن كل الهدايا والهبات ومظاهر التمجيد والإجـــلال التـــى تغدقـــها الجماهير بجود انطلاقاً من التقـــوى وعلى سبيل العبـــادة، كـــل هذا-فيما أرى- لايستوجب فى ذهن الله أى احتقــــار أو ازدراء على نحو مايثيره عند البعض فى هذه الأيام بســـبب بســـاطتهم المسرفة. وعلى أية حــال فهذا مايؤكده العقل والواقـــع علـــى السواء" (٧٦).

ويبدى ليبنتز إعجابـــه بالكنيسة بوصفها هيئـــة دينيـــة مقدسة؛ فهى جيش سماوى يجاهد علـــى الأرض، لكـــن هـــذا الإعجاب مشروط بسيرها على الحق وبعدها عن الفساد، يقـــول: "أقر بأن المؤسسات الدينية، والجمعيات المقدسة، وكل مايشبهها، تنال إعجابى بشكل خاص، فهى تظهر بوصفها جيشـــا ســـماوياً يحارب فى الأرض، على شريطة أن يجنبوها الأخطـــاء كلـــها والفساد بكل أنواعه، وأن يديروها على أساس روح ومبـــادىء

---

(٧٦) Hazard, Critical years , P.224 .

منشئيها، وأن ينفذها الأب المقدس القائم على شـــئون الكنيســـة العالمية"[٧٧].

ومن الواضح أن ليبنتز ينتهج فى تسويغه السابق منـــهجاً خطابياً عاطفياً، ومع أنه يستخدم مصطلحات من قبيل "العقــل" و "الواقع" إلا إنه يوظفها كشعارات وليس كأدلة منطقية أو براهيـن استدلالية، ولاحتى كأدلة جدلية كلامية. وربما يجوز الحكم بــأن هذا هو الطابع العام لمنهجه فى "النظام اللاهوتى". ولكنـــه فـــى "العدالة الإلهية" يدافع عن النذور والابتهالات والصلوات الكنسيّة على أساس انتهاج المنهج الجدلى المدعم بالتبرير الميتـــافيزيقى انطلاقاً من نظريته عن الاتســـاق المقـــدر أو التقديـــر الإلـــهي الأزلى. فإذا كان بعض العقلانيين يعــــترضون علـــى النـــذور والابتهالات والصلوات، وكذلك على الحسنات والسيئات والخـير والشر، على أساس أنها تتعارض مع سبق التقدير الإلهى الـــذى ينص على أن كل شى قد قدّره الله منـــذ الأزل ولامجـــال لأى تغيير أو إلغاء لهذا القدر فإن ليبنتز يعتبر هذا الاعتراض مـــن الاعتراضات التى تسبب إرباكاً للناس ، ومع ذلك فهو لايتعـــدى نطـــــــــــاق السفسطة " لأن الصلـــــــــــوات والنـــذور (كالحج وماشاكله من أعمال)، وكذلك الأفعال الطيبـــة والســـيئة التى تحدث الآن كانت أمام الله حينما قدر ترتيب الأشياء وكـــل

(٧٧) Ibid .

تلك الأمور تحدث فى العالم الموجود الآن،وكانت ممثلة بكل آثارها ونتائجها فى فكرة نفس العالم حينما كان هذا العالم فى حالة الإمكان فقط؛ فقد كان كل شيء ممثلاً فيه، وقد جذب هذا العالم الاستحسان الإلهي بكل مافيه من طبيعي وخارق، وبكل مايتطلبه من ثواب وعقاب، تماما مثلما يحدث فى العالم منذ أن اختاره الله؛ لذا فإن التضرع أو فعل الخير كان فى الحالة التصورية أو المثالية Ideal condition، ولذا فإن النزوع العقلى للخير قادر على أن يساهم فى الفضل الإلهى وفى الصواب أيضا... وحيث إن كل الأشياء ارتبطت مع بعضها البعض بحكمة فى هذا العالم، فمن الواضح أن الله رأى من ذى قبل أوتنبأ بكل ماسيحدث بحرية، ورتب كل شيء مسبقاً بناء على هذا المبدأ الأساسى"(٧٨).

وعلى هذا النحو الميتافيزيقى الذى سوّغ به الابتهالات والنذور والصلوات، قام بستويغ الطقوس المظهرية للكنيسة، فكلها مقدرة سلفاً فى فكرة خلق العالم فى الذهن الإلهى عندما كان العالم مجرد مثال تصورى لم يخرج بعد إلى حيز التنفيذ .

---

(٧٨) Leibniz , Theodicy , P. 152 .

القربان المقدس

القربان المقدس

يبدأ ليبنتز بعرض آراء الفرق المسيحية الأوربية حول القربان المقدس Eucharist أو الإفخارستيا؛ ويبين مدى الخلاف بين الكاثوليك من ناحية والبروتستانت من ناحية أخرى، ويكشف عن أن الخلافات حول القربان المقدس كانت موجودة بين طوائف البروتستانت أنفسهم . فالكنيسة الكاثوليكية نادت بفكرة التحول Transubstan tiation التى تعنى تحول الخبز والخمر إلى جسد ودم يسوع المسيح تحولاً حقيقيا جزئيا وكلياً، فمع أن الخبز والخمر يظلان فى الظاهر خبزاً وخمراً ولايفقدان شيئا من خواصهما الظاهرية سواء فى الطعم أو اللون، فإنهما يتحولان بطريقة معجزية إلى دم ولحم المسيح؛ حيث يحل جسد المسيح محل الخبز والخمر(٧٩).

أما البروتستانت فقد اشتد بينهم النزاع؛ إذ يوجد خلاف بين اللوثريين والزونجيليين والكلفنيين. ولقد اشتد هذا النزاع بين اللوثريين والزونجيليين لدرجة أن لوثر لم يقبل أن يدعو الفريق

(٧٩) Ibid ., P . 84 .

المعارض له إخوة فى المسيح حتى يقبلوا بعقيدة القربان بمعناها الحرفى لا الرمزى.

ومن ناحية أخرى اختلف كلفن مع لوثر وزوينجلى، واتهم الأخير بأنه لم يترك شيئا من الفرائض إلا رموزاً عارية وفارغة.

ومن الملاحظ أن زوينجلى وأتباعه فهموا القربان المقدس فهما عقلانياً خالصا، ومن ثم تأولوه تأويلاً رمزياً. ووصف هذا التأويل الرمزى بالعقلانية ليس وصفاً مقدماً من ليبنتز ،وإنما هو وصف كل من اختبروا العقائد والفرائض المسيحية بالعقل المحض. أما ليبنتز فقد قال عارضاً لرأى زوينجلى وأتباعه: "قد اختزل قطاع من هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم الإصلاحيين، وخاصة هؤلاء الذين كانوا يتبعون زوينجلى أكثر مما كانوا يتبعون كلفن مشاركة المسيح بجسده فى العشاء الربانى Holy communion إلى تمثيل مجازى، موظفين بذلك المبدأ الفلسفى الذى ينص على أن الجسم لايكون إلا فى مكان واحد فى الوقت نفسه[٨٠]". فزوينجلى يصر على أن حضور

(٨٠) Ibid .

المسيح حضور روحى فى قلب المؤمن المتلقى للقربان، وبدون هذا الإيمان لاقيمة للقربان المقدس مطلقاً. إن عبارة "هذا هو جسدى" يجب أن تفهم رمزياً كما لو أنها تذكير بتضحية المسيح التى قوّت الإيمان بالخلاص[81]. فهى لاتعدو أن تكون ذكرى لموت وقيامة المسيح؛ ولذلك ففى كل مرة يجتمع المؤمنون حول المائدة يتذكرون موت ذاك الذى أسلم نفسه من أجلهم.[82].

وخالف هذا الرأى الانجليون Evangelicals الذين أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب كما يقول ليبنتز تمييزاً لأنفسهم عن الإصلاحيين"وكان هؤلاء الانجيليين البروتستانت أكثر تمسكاً بالمعنى الحرفى للكتاب المقدس. فقد رأوا مع لوثر أن اشتراك المسيح فى العشاء الربانى كان حقيقياً (بجسده ودمه) وهنا يكمن السر الخارق[83]" . لكن ليس معنى هذا أن الأنجليين الذين تابعوا لوثر يقولون برأى الكنيسة الكاثوليكية، إذ يوجد فرق جوهرى

---

(٨١) انظر: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبدالهادى عباس، سوريا ، دار دمشق، ١٩٨٦ ،ج ٣، ص ٢٦٨ .

(٨٢) انظر: حنا جرجس الخضرى ، جون كلفن: دراسة تاريخية عقائدية عقائدية، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٩ ص ٢٥٧ .

(٨٣) Leibniz , Theodicy , P . 84 .

بين رابيهما. وحتى نوضح هذا الفرق لابد مـــن توضيـــح رأى لوثر، فهو يقول بأن المسيح يحل فى الخبز والخمـــــر بطريقـــة حقيقية، لكن هذا الحلول لايعتبر حلولاً بديلاً لحضـــــور الخـــبز والخمر، بل حضور مزدوج، بمعنى أن حلول المسيح فى هـاتين المادتين لايلاشى حضور الخبز والخمر ولا يلغيه، فلوثر يعتقـــد أن الخبز والخمر يظلان خبزاً وخمراً كما كانا من قبل مـــع أن المسيح يحضر فيهما، أى أن اجتماع المسيح بجسده ودمه مـــع الخبز والخمر لايعنى اتحاداً بين الجانبين، بـــل يعنـــى تلازمـــاً بينهما مثل عملية التجسد. ومن ثم فالفرق بيـــن مفـــهوم لوثـــر ومفهوم الكنيسة الكاثوليكية التـــى تتمسـك بـــالتحويل الجزئـــى والكلى، هو أن لوثر ينادى بأن حضور المسيح حقيقـــة حرفيـــة لاتلغى ولاتلاشى حقيقة وجود الخبز والخمر، بينمـــــا الكنيســـة الكاثوليكية تؤكد على أن وجود جسد المسيح ودمه لغى ولاشـــى عنصرى الخبز والخمر. ورغم هذا الخلاف فمن الواضـــــح أن المسافة التى تفصل بين لوثر والكاثوليكية فى هذه المسالة بالذات ليست كبيرة بالقياس إلى المسافة التى تفصـــل زوينجلـــى عـــن الكاثوليكية؛ فلوثر لايـــزال يقـــر بحضـــور حقيقـــى بـــالمعنى

الحرفى، لكنه يفسر هذا الحضـــور بنظريـــة مباينـــة للنظريـــة الكاثوليكية، أما زوينجلى فقد جرد القربان المقدس من أى معنـــى حرفى حقيقى، وفسره تفسيراً رمزياً .

ويوضـــح ليبنـــتز رأى الانجيليـــن المنكـــر لنظريـــة التحول ونظرية الاتحاد بقولـــه : " أنكـــر هـــؤلاء الانجليين عقيدة التحول التى يرون أنها لاتستند إلى أســـاس فـــى نـــص الكتـــاب المقـــدس، ولـــم يوافقـــوا علـــى فكـــرة الاتحـــاد Consubstantiation ، هذه الفكرة التى قـــد ينســـبها أحـــد إليـــهم إذا كانت معلوماته غير صحيحة عن رأيهم فقـــد أقـــروا بعـــدم التحول وكذلك بعدم الاتحـــاد بيـــن الخـــبز المقـــدس وجســـم المســـيح. ولكنـــهم طـــالبوا بـــالتلازم أو التصـــاحب Concomitance"(٨٤).

وإذا كانت القاعدة الفلسفية قيدت وجود الأجســـام بمكـــان واحد فقط بناء على السياق المألوف للطبيعة، فإن الإنجليين لـــم يروا فى هذه القاعدة حائلاً دون وجود جسد المسيح على تلـــك الصورة؛ لأن المعنى المألوف للكلمة لايحول دون ذلك، بل إنـــه

---

(٨٤) Ibid .

يتفق مع الجسم العظيم. ويلوذ الانجيليون بالتفسير القائل بكليـــة الوجود Ubiquity أى وجود الشيء فى كل مكـــان فـــى جميـــع الأوقات، ولا يقرون بنظرية التضاعف أو المضاعفـــة Multiple التى قال بها بعض علماء اللاهوت والتى تنص علـــى إمكانيـــة وجود الشخص نفسه جالساً هنا وواقفاً هناك فى مكان آخر فـــى الوقت نفسه(٨٥).

ويرى كلفن أن العشاء الربانى هو طعام روحـــى يقدمـــه المسيح نفسه ، وأن المسيح حاضر بنفسه وبطريقة روحية فـــى هذه الفريضة، وحضور المسيح هو حضور روحى إذن وغـــير منظور، وليس حضوراً مادياً على أى نحـــو؛ حيـــث لا يجـــب تحديده وتقييده بمادتى الخبز والخمر. وهـــو وحـــده وليـــس عناصر الفرائض الطبيعية الذى يقوى الإيمان، والروح القدس هو الذى يساعد المؤمن على إدراك حضور المسيح روحياً، وأنه يتغذى روحياً من جسد ودم المسيح، وأن هـــذا الطعـــام الـــذى يتناوله هو فعلاً جسد المسيح الروحى. ويرفض كلفن فكـــرة أن حضور المسيح فى الافخارستية ملموس ومحسوس، كما لو كان

---

(٨٥) Ibid., P. 85..

المسيح ينزل من السماء بناسوته ويحل فى المائدة لدرجة أنه يمكن لمسه بالأيدى ومضغه بالأسنان وبلعه بالحنجرة. فكلفن يعتقد أن ناسوت المسيح موجود فى السماء، فى حين أن لوثر يقول بوجود الناسوت وجوداً كلياً فى كل مكان فى جميع الأوقات. والمشاركة عند كلفن بين المسيح فى السماء والمؤمنين على الأرض المشتركين فى الافخارستية تتم عن طريق الروح القدس. ويقوى كلفن فى رأيه هذا إذ "أنه أكد على تناول الطعام والشراب فعلاً، والاختلاف يكمن فى أن كلفن طالب باعتقاد حقيقى بالإضافة إلى التلقى الشفهى للرموز، وبناء على ذلك استبعد كل ماهو غير لازم(٨٦)".

أما رأى ليبنتز نفسه فى القربان المقدس؛ فهو تأكيد الاعتقاد بالمشاركة الفعلية والمادية للمسيح فى القربان، يقول:" ومن ثم نرى أن عقيدة المشاركة الفعلية والمادية يمكن أن تلاقى التأييد دون الحاجة إلى اللجوء إلى الآراء الغريبة لبعض اللاهوتيين(٨٧)". ويؤسس هذا الاعتقاد على ماسماه "الفهم الصحيح للتناظر بين التأثير المباشر والحضور أو

---

(٨٦) Ibid .

(٨٧) Ibid .

للتناظر بين التأثير المباشر والحضور أو الوجـــود[٨٨]".ويعمـــل على استحضار جانباً من التراث الفلسفى الذى يســـوّغ عقيـــدة حضور المسيــــــح فعلياً ومادياً فى الخبز والخمر؛ فيشير إلــى أن كثيراً من الفلاسفة وضعوا فى اعتبارهم التناظر بين التـــأثير المباشر والوجود الفعلى فى مجال الطبيعة؛ فالجســـم يمكـــن أن يكون له تأثير من مسافة بعيدة على أجسام أخرى متعددة بطريقة مباشرة فى الوقت نفسه [٨٩]". والنموذج الفلسفى الذى يستحضره ليبنتز هنا هو الكلبيون[٩٠] الذين اعتقدوا أنه لايوجد شىء يمنـــع

---

(٨٨) Ibid .

(٨٩) وضع ليبنتز الأساس الميتافيزيقى لهذه النظرية فى كتابه "المونادولوجيا" حيث قـال: " يعبر المركب تعبيراً رمزياً عن البسيط. فلما كان كل شىء ممتلئاً أو ملاء وهذا هـــو الذى يجعل المادة كلها مترابطة وكانت كل حركة تتم فى الملاء تؤثر علـــى الأجســـام البعيدة على حسب بعدها، بحيث إن كل جسم لايتأثر فحسب بالأجسام الملامسة له مباشرة ويشعر على نحو من الأنحاء بكل مايحدث لها، بل يشعر عن طريقها كذلك بتـــأثير تلـــك الأجسام التى تلامس الأجسام الأولى التى تلامسه، مباشرة، فيلزم عن هذا أن هذا الســـياق يمتد إلى أى مسافة ممكنة". فقرة ٦١، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٩٠) سميت هذه المدرسة بهذا الاسم الكلبية Cynicism نسبة إلى "الكلب" ممـــا يـــدل على أن الأسم لابد أن يكون من وضع أحد خصومها سخرية من المنتمين إليها. ويذكـــر ذيوجانس اللائرسى أن مؤسس المدرسة أنطستانس لقب بلقب كلب حقيقى. وأيـــد هـــذه التسمية ذيوجانس وأتباع المدرسة المتأخرون بازدرائهم للعادات المتبعة واحتقارهم للجـــاه والوجاهة، وبما أظهروه من زهد فى الحياة واستمتاع باجتلاب اللوم. وإن كان هنـــاك =

القدرة الإلهية من أن تجعل شخصا ما يتمثل فى عدة أجسام ، بناء على أن التحول من التأثر المباشر عن بعد إلى الحضور الفعلى ماهو إلا أمر طفيف(٩١). ومع أن بعض الفلاسفة الذين لايحدد ليبنتز أسماءهم، أنكروا لفترة طويلة عملية التأثير الطبيعى المباشر لجسم على جسم آخر بعيدة عنه، فإن هذه النظرية تم "إحياؤها الآن فى بريطانيا على يد العالم الذى هو موضع إعجاب نيوتن الذى يؤكد أن من طبيعة بعض الأجسام أن تتجاذب وتتحرك تجاه بعضها البعض بناء على نسبة كل كتلة كل منها وكمية أشعة التجاذب التى تتلقاها"(٩٢). ويستشهد بجون لوك الذى اعترف بأن الله يمكن أن يضع خواصاً فى المادة تجعلها قادرة على التأثير من بعد؛ وعليه فإن لاهوتيى

= رأى يقول إن الكلمة نسبة إلى اسم ميدان فى آثينا، وهو أمر محتمل خصوصاً بالنسبة إلى أنطستانس، انظر: د. عبدالرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤، جـ ٢ ، ص ٣٢١ . ونشأت هذه المدرسة فى اليونان القديمة فى القرن الرابع ق.م وقد أصبح اسمها يُطلق على كل من يحتقر قواعد السلوك الأخلاقى والفضيلة ويكسرها بلا حياء . انظر:

Rosenthal and Yudin, Adictionary of philosoply, moscow, progress publishers, 1967 , P. 109 .

(٩١) Leibniz, Theodicy , p 85.

(٩٢) Ibid .

طائفـــة أوجسبرج ادعوا أن الله قضى أن يعمل الجسم ويكون له تأثير مباشر على أجسام أخرى بعيدة عنه. ليس ذلك فحسب، بل إنه قضى كذلك بأن يمكن هذا الجسم مـــن أن يحيـــا داخـــل أو بجوار الأجسام الأخرى التى يتمكن من التأثير عليها وهو بعيـــد عنها. وهذا التأثير يفوق قوى الطبيعة، ولا يرى أتباع مذهــــب أوجسبرج فى ذلك تجاوزاً لسلطة خالق الطبيعة؛ لأن من الســهل عليه أن يبطل القوانين التى أقامها، أو أن يحل تلك القوانيـــن إذا بدا له فى ذلك خيراً، وبالطريقة نفسها إنه قادر على أن يجعـــل الحديد يطفو على الماء(٩٣).

وإذا كان ليبنتز يؤكد فى المونادولوجيا اتصــــال مجـــرى الطبيعة، فى حين أن الرؤية المسيحية تؤكد انقطاعه، فإن ليبنـــتز بذل قصارى جهده لرفع هذا الخلاف . ومن هذا القبيل عقيـــــدة تحول القربان التى تمثل ضرباً من التعليق فى اتصال مجـــــرى الطبيعة الذى أكده فى المونادلوجيا. وقد ذهب الأب دى بـــــوس اليسوعى الى أن نظريته فى المونادولوجيا تتعارض مع عقيـــدة تحول القربان. وقد رد ليبنتز على دى بوس مبيناً عدم التعارض

---

(٩٣) Ibid ., P . 86 .

مستخدماً مفهوم الرابطة الجوهرية ليعلل وحدة الأجسام؛ ففي استحالة القربان تبقى المونادات المتصلة بالخبز قائمة، ويبقى الخبز ظاهرة " ذات أساس مكين"؛ ولكن بمعجزة تحل الرابطة الجوهرية لجسد المسيح محل الرابطة الجوهرية للخبز .

ورغم كل هذا الدفاع النضالي عن القربان المقدس، فإن ليبنتز " ذهب إلى الكنيسة قليلاً ، ولم يتناول القربان المقدس لسنوات كثيرة "[٩٤]! .

---

(٩٤) Jordan , Reunion of the Churches: Astudy of G.W. Leibnitz and his great attempt , P. 36 .

الخطيئة واللعـــنة والتعميد والخلاص
فى ضوء مذهب أفضل العوالــم الممكنة

الخطيئة واللعنة والتعميد والخلاص
فى ضوء مذهب أفضل العوالـــم الممكنة

جاهد ليبنتز لتنحية التعارض الذى يطرحه مذهب أفضـــل العوالم الممكنة مع الخطيئـــة الأصليـــة واللعنـــــة والجحيـــم الأزلى، وعمل على حل هذه المشاكل من خلال حلــــه لمشــكلة الشر، وفى سياق هذا تناول مسائل لاهوتية عديدة مثل التعميـــد والخلاص وحكم الذين ماتوا دون أن يعرفوا الكتاب المقــدس أو دون أن يحصلوا على التعميد. وكان منهجه متوسلاً بكل أساليب التبرير من أجل إثبات أن الله قد خلق خير العوالم، وأنه بـــرىء من تهمة صنع الخطيئة والشر، وبشكل عام إثبـــات أن عقـــائد المسيحية عن الخطيئة الأصلية واللعنة والجحيم الأزلي والتعميـد لاتتعارض مع العقل، ولاتقف كحجر عثرة أمام اتساق مذهـــب أفضل العوالم الممكنة[٩٥] .

---

(٩٥) من الجدير بالذكر أن ليبنتز لايؤكد أن هذا العالم هو أفضل العوالـــم المتخيلة Imaginable Worlds ، بل هو فقـــط أفضـــل العوالـــم الممكنـــة Possible Worlds ؛ إذ إنه لايمكن إلا أن يكون هكذا نظراً لأن الله الخـــير المطلق قد اختاره ولم يختر عالما آخر سواه : انظر:

Daniel J . Bronstein and Harold M . Schulweis (editors) Approaches to the Philosopphy of Religion, ABook of Readings, New Yourk, Prentice hall, INC . , 1954 ,.P 234 .

وابتداء فالله غير مسئول عن الشر، سواء كان شراً ميتافيزيقيا، أو طبيعيا، أو أخلاقيا. فالشر الميتافيزيقى هو مجرد نقص وعدم يبدوان أمامنا إذا نظرنا للمخلوقات نظرة جزئية. لكن النظرة الكلية التى تضع المخلوقات كلها فى سياق العالم بأجمله تبين أن النقص الجزئى فيها ضرورى من أجل الكمال الكلى[٩٦]، ثم إن "وجوه النقص فيها ترجع إلى طبيعتها الخاصة التى يعجزها أن تكون بغير حدود، لأن هذا هو أساس اختلافها عن الله"[٩٧]، ولما كانت العدالة بأعم معانيها لاتخرج عن أن تكون هى الخيرية المطابقة للحكمة، فلابد أن يوصف الله بالعدالة فى أسمى صورها. والسبب الذى جعل الأشياء تستمد منه وجودها، هو كذلك الذى يجعلها تعتمد عليه فى استمرار وجودها وسائر أفعالها وتتلقى منه على الدوام كل مايضفى عليها نوعاً من الكمال ، أما مايبقى من أوجه النقص فيرجع إلى مافطرت عليه المخلوقات من قصور أساسى متأصل فيها"[٩٨].

وبالنسبة للشر الطبيعى أو الآلام ، فهو إما أثر من آثار النقص الميتافيزيقى الذى سبق تبريره، أو هو أثر من آثار الخطيئة التى تستوجب المحاسبة والجزاء ، وقد تكون الآلام والمصائب الطبيعية وسيطة لتحقيق " خير أعظم عند من

---

(٩٦) Leibinz , Theodicy , P. 378 .

(٩٧) ليبنتز ، المونادلوجيا، فقرة ٤٢، ص ١٤٧ .

(٩٨) ليبنتز، المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى ، فقرة، ٩ ، ص ١١٢ ١١٣ .

يعانون منها"[٩٩]، وقد تكون تنبيهاً مبكراً من أجل اتقاء ضـــرر أكبر. وفى كل الأحوال فإن النظام الطبيعى نفسه قد اختـــاره الله وفق أحسن خطة ممكنة؛ لأنه "يلزم عن الكمال الأقصى لله أنـــه عندما أبدع العالم قد أختار أصلح خطة ممكنة يتحد فيها أعظـــم قدر من التنوع مع أعظم قدر من النظام : حيث نظمــت الأرض والمكان والزمان على خير وجـــه، وتحقــق أعظــم النتــائج بأبسط الوسائل، وحيث زودت المخلوقات من القـــوة والمعرفـــة والسعادة والخير بأعظم قدر يمكن أن يسمح بـــه العـــالم [١٠٠]". ويوجد تجانس كامل بين مملكة الطبيعة الفيزيائية ومملكـــــــة الفضل الإلهى الأخلاقية، أى بين الله بوصفـــه مـــهندس الآلـــة الكونية، وبين الله بوصفه ملكاً على المدينـــة الآليـــة لـــلأرواح. ويترتب على هذا التجانس أن الأشياء تؤدى إلى الفضل الإلـــهى بالوسائل الطبيعية نفسها، وعلى سبيل المثال: "يفرض على هـــذه الكرة الأرضية مثلاً أن تدمر ويعاد بناؤها بـــالطرق الطبيعيـــة نفسها فى وقت معلوم، عندما تتطلب ذلك حكومة الأرواح: عقابـــاً

---

(٩٩) Leibniz , Philosophical Writings, ed . and trans . G. H. R parkinson and Mary Morris ,London , 1973 , P. 40 .

(١٠٠) ليبنتز ، المبادىء العقلية للطبيعة والفضل الإلهى، فقرة ١٠ ، ص ١١٣ .

للبعض وثواباً للبعض الآخر[١٠١]". وبناء على ذلك فإن الخطايا تحمل معها العقاب الذى تستوجبه بمقتضى النظام الطبيعى والتكوين الآلى للأشياء نفسها[١٠٢].

أما الشر الخلقى ، فيطرح إشكالية تحتاج حلاً: كيف سمح الله بالخطيئة الأصلية وهو يعلم مسبقاً أنها ستحدث، ولديه القدرة الكاملة على منعها؟ هل معنى هذا أن الله هو سبب الخطيئة Sin ؟ تجد هذه الإشكالية حلها عند ليبنتز [١٠٣]؛ فالله لم يُرد الخطيئة، ولكنه سمح بها لأنها تدخل فى حيز أفضل العوالم الممكنة، على اعتبار أن الخطيئة هى من مستلزمات الحرية التى منحها الله لآدم وحواء وهذه الحرية جزء من تكوين أفضل العوالم الممكنة. ولقد اختار الله هذا العالم كله دفعة واحدة بقرار كلى، ولم يخلق آدم وحواء بقرار جزئى، ولو كان خلقهما بقرار جزئى لما كان وضعهما فى وضع يسمح بالخطيئة، لكنه خلقهما ضمن خلق العالم ككل بقرار مطلق وكلى، وكان خلق العالم بما

---

(١٠١) ليبنتز ، المونادلوجيا ، فقرة ٨٨ ، ص ١٧٦ .

(١٠٢) المصدر السابق ، فقرة ٨٩ ، الصفحة نفسها .

(١٠٣) انظر هذا الاعتراض ورد ليبنتز التفصيلى عليه فى :
Bronstien and schulweis , Approaches to the Philosophy of Religion , P .O. 321 24 .

فيه آدم وحواء على هذا النحو هو الأحكم والأصـــوب لإبـــداع أفضل عالم ممكن. ثم إن خطيئة آدم وحـــواء ليســت محتمــة الوقوع ميتافيزيقيا، ولايتضمن عدم وقوعها أى تنــاقض؛ لأنــه كان بإمكانهما بحكم الحرية الممنوحة لهما ألا يخطئا. وعلى هذا فالخطيئة الأصلية مسئوليــــة آدم وحـــواء، ولايســأل الله عنها، وكذلك حكم الشر الخلقى الذى يقترفه الإنســـان فـــى أى زمان ومكان . والإنسان بإمكانه دوماً أن يتجنب هذا الشـــر إذا ماأحسن الاختيار ولم يسىء استخدام حريته.

هكذا يبرر ليبنتز الخطيئة الأصلية والشر الخلقى بعامـــة من منظور أفضل العوالم الممكنة على أساس ميتافيزيقى، وعلى هذا النحو نفسه رد على اعتراض بيل: كيف يجيز الإله الخـــيّر القادر على كل شىء والعالم بكل شىء سلفاً إغواء الشيطان لآدم وحواء؟ وثمة زوايا أخرى يُطل منها ليبنتز على هذا الإشـــكال مقدماً مزيداً من الحلول له؛ فخطيئة الإنسان قد تكون سبباً لخير أعظم، وخطيئة آدم وحواء نفسها كانت سبباً لخـــير أكـــبر هـــو نزول المسيح ! فلولا خطيئتهما لما جاء المسيح من أجل خلاص الإنسانية، وخطيئة يهوذا الاسخريوطى الذى خان المسيح وسلمه كانت سبباً لصلبه، وصلبه كان سبباً لفداء الإنسانية وخلاصـــها! ومن ثم كانت مثل هذه الخطايا خطايا سعيدة![١٠٤] .

---

(١٠٤) Leibniz , Theodicy , P.378 .

لكن كيف ينسجم مذهب أفضل العوالم الممكنة مع العقيدة اللاهوتية التى تقول ان الملعونين المقدَّر عليهم العذاب الأبدى أكبر عدداً من الذين تمتعوا بنعمة الخلاص؟ يجيب ليبنتز بأن سعادة الذين نالوا الخلاص تبلغ من الكبر مايفوق شقاء الملعونين[١٠٥]، والألم الحادث من جراء هذا بوصفه شراً لايقارن مع حجم الخير بالنظر إلى سعة مملكة الله، بل قد يكون ضئيلاً لايُذكر بالقياس لحجم الأشياء الخيرة فى هذه المملكة التى تحكمها حكومة كاملة لاتترك فعل خير بدون ثواب ، ولافعل إثم بغير عقاب، وتُسخر كل شيء من أجل الأخيار[١٠٦].

وثمة مسألة لاهوتية يطرحها ليبنتز : هل يمكن أن يحصل على الخلاص أولئك الذين لم يعرفوا العهد القديم أو العهد الجديد، ولكنهم يؤمنون إيماناً طبيعياً؟ يطرح ليبنتز الإجابات المختلفة على هذا السؤال قبل أن يقدم إجابته شخصياً، فيشير إلى أن كليمنت السكندرى وجوستان مارتير وسانت تريوستوم يرجحون حصول أولئك على الخلاص، كما أن مجموعة من علماء الكنيسة الرومانية يرون إمكان خلاصهم بواسطة التوبة وتأنيب الضمير ومشاعر حب الخير وحب الله، وهناك بعض المؤلفين الذين كتبوا عن خلاص أرسطو، ويذكر ليبنتز

---

(١٠٥) Ibid ., P . 379 .

(١٠٦) Ibid ., p . 134 .

والمونادلوجيا ، فقرة ٩٠ ، ص ١٧٧ .

كذلك اندراديوس العالم البرتغالى الذى اعتبر أولئك يستحقون الخلاص، واعتبر أن مَنْ يعارضونه يجعلون الله قاسياً جداً. واندفع القديس أوغسطين نحو الطرف النقيض، فقال إن أولئك لايستحقون الخلاص، بل واتهم الأطفال الذين ماتوا دون تعميد بعدم استحقاق الخلاص! أما ليبنتز فيظهر ميله للقائلين بخلاصهم، ويؤكد على أن الله لايمكن أن يفعل شيئاً لايكون ممتلئاً بالخير والعدالة Goodness and Justice (١٠٧).

(١٠٧) Leibniz , New Essays concerning Human Understanding , P . 595 .

نقد موقف ليبنتز اللاهوتى

نقد موقف ليبنتز اللاهوتى

تبين لنا ، إذن، كيف أن ليبنتز بذل قصارى جـــهده مـــن أجل تبرير العقائد اللاهوتية، ورفعـــها فـــوق معياريـــة العقـــل باعتبارها حقائق قصوى يعجز العقل عن فهمها؛ فالعقل قـــاصر ومحدود، وعليه أن يتقبل أسرار المسيحية فى إذعـــان مطلـــق. ولاريب أن فى هذا إعاقة لنمو فاعليـــة العقـــل النقديـــة تجـــاه اللامعقول، وإيقاف لقصدية الفكر نحو فهم اللامعلوم باعتبـــاره يمثل تحدياً للعقل واستفزازاً لقدراته على نحو يجعلـــه يســـعى لاكتشافه وفهمه. وهنا ينبغى التمييز بين نوعين مـــن العلاقـــة: علاقة العقل باللامعلوم فى المعرفة العلميـــة، وعلاقـــة العقـــل باللامعقول فى لاهوت ليبنتز . إن علاقة العقل باللامعلوم علاقة ايجابية منتجة؛ حيث إن اللامعلوم يمكـــن أن يصـــير بـــالبحث المتواصل معلوماً، وتمثل هذه العلاقة مرتكزا لتقـــدم المعرفـــة العلمية بالعلم والحقيقة. أما علاقة العقل باللامعقول أو بما ســـماه ليبنتز " مافوق العقل"، فهى علاقة سلبية مستسلمة؛ لأنها تســـلب من العقل معيارته، وتضعه خارج إطار إمكانية فـــهم الأســـرار اللاهوتية المقدَّمة بوصفها الحقيقة المطلقة، وتسحب منـــه حـــق الحكم عليها، مع انها تطالبه فى الوقت نفسه بالإذعان التام لها.

إن تسويغ اللاهوت للأسرار الدينية على أساس وضعـــها فوق العقل، هو إزاحة للوعى العقلى عن ممارسة دوره فى فـــهم الحقيقة والتمييز بين الحق والباطل، وإحباط لفاعليته التى تحفـزه لاكتشاف اللامعلوم أو على الأقل تقليل مساحته تدريجياً . فليبنتز

يجهد نفسه لعقلنة الأسباب التى تكرس القطيعة المعرفيـــة مـــع المجهول، وترسخ مجتمع السحرة الذى يعطى اللامعقول ســلطة الغيب المقدس الذى يتطلب الاستسلام للأســـرار . والاستســلام التام فى اللاهوت يمهد ويستلزم الاستسلام التام فى السياسة .

وتظهر هنا أهمية ابن رشد كمقابل لليبنتز ، فـــهو يبنـــى العلاقة المعرفيـــة بيـــن الإنســـان والله علـــى أســـاس العقـــل واللامعلوم، وليس على أساس العقل واللامعقول، فالإنسان يمكنه أن يعرف الحقيقة ويفهمها عبر اكتشافه للعـــالم بمـــا فيـــه مـــن مخلوقات، بواسطة البحث العقلى فى الوجود، فيقول:" إن كـــان فعل الفلسفة، من جهة دلالتها على الصانع، أعنى من جهة ماهى مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل علـــى الصـــانع بمعرفـــة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها(أو بصفتها) أتم كانت المعرفة بالصانع أتم"(١٠٨).؛ فمعرفة الله ممكنـــة عـــبر معرفـــة العالم، وهذه المعرفة بالله ليست فوق العقل وخـــارج معـــاييره، وليس هذا موقف الفلسفة فقط من وجهة نظر ابن رشد، بل هـــى موقف الإسلام كذلك، يقول: "وكان الشرع قد ندب إلى اعتبـــار الموجودات، وحث على ذلك فأما أن الشرع دعا إلى اعتبـــار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بيّن فى غير آيـــة من كتاب الله تبارك وتعالى (١٠٩).. " وإذا تقرر أن الشـــرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجـــودات، واعتبارهـــا، وكـــان

(١٠٨) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيـق د. محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١، ص ٢٢ .

(١٠٩) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أوجب النظر بالعقل فى الموجودات، واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من: استنباط المجهول من المعلوم، واستخراجه منه ... وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان، كان من الأفضل، أو الأمر الضرورى ، لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان، أن يتقدم أولاً فيعلم أنواع البراهين وشروطها "(١١٠).

وهكذا نجد أن لاهوت ليبنتز إذا كان قد شغل العقل بحوار غير منتج من طرف واحد مع اللامعقول الذى يظل دوماً بمنأى عن العقل، فإن خطاب ابن رشد قد صرف العقل عن هذا الانشغال التغييبى السلبى، وحوله إلى الدخول فى علاقة معرفية منتجة مع الحقيقة الله بوصفها أو بوصفه لامعروفاً يمكن معرفته .

وفى هذا السياق تستدعى مقارنة ليبنتز بكنط نفسها، فنظرة كنط إلى عالم الأشياء فى ذاتها ليست مثل نظرة ليبنتز، لأن كنط عندما وضعها خارج العقل، أراد أن يضع حداً لسلطة اللامعقول التى توقع العقل فى حالة من الانشغال التغييبى؛ لكى يجعل الطريق خالياً أمام العقل؛ " لأن قول كنط بالأشياء فى ذاتها وعدم قابليتها للمعرفة قد يعنى أن الأشياء فى ذاتها يستحيل الوصول إليها عقلياً، لا لأن ثمة وسيلة أخرى لمعرفتها، وإنما لأنها ليست موضوعات جوهرية يمكن الإمساك بها برهانياً.

---

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٢٣ ٢٤ .

وهى لاتعدو أن تكون مجرد حد منطقى، أو هى دوال منطقية تحولت بفعل إنشائية العقل إلى جواهر، وماهى كذلك، لعدم وجود مقابل واقعى لها"[١١١] .

ثم إن كنط لم يقم بوضع عقائد اللاهوت والأسرار المسيحية فى عالم الأشياء فى ذاتها، بل وضعها فى قلب عالم الظواهر عندما قاسها بمقياس العقل النقدى، وكانت النتيجة هى تفريغها من محتواها اللاعقلانى، ونزع كل سلطتها القدسوية التى ترفعها فوق العقل، واستبعاد الصبغة السرية المصبوغة بها، ومن ثم تصدع اللاهوت عن آخره تحت معاول النقد الكنطى. ومع هذا فثمة إيمان يبقى عند كنط، هو الإيمان الأخلاقى، إيمان العقل العملى المحض؛ وليس إيمان الأسرار والخوارق الذى دافع عنه ليبنتز .

ومما يدعو للتحفظ أن ليبنتز الذى رفع عقيدة الثالوث باعتبارها سراً فوق العقل وخارج معاييره، قام بتقديم تفسير لعقيدة الثالوث لكى تبدو مفهومة وغير معارضة للمبدأ العقلى الثابت الذى ينص على " أن الأشياء المساوية لشىء ثالث يكون كل منها مساوٍ للآخر" وهو ماقد عرضنا له بالتفصيل سابقاً، والسؤال الذى يطرح نفسه: ألا يوجد تناقض فى هذا الموقف؛ إذ كيف يرفع الثالوث فوق معايير العقل، ثم يحاول فى الوقت نفسه سيراً على استراتيجيته فى الدفاع والتبرير تسويغه

---

(١١١) د . محمد عثمان الخشت، فلسفة الدين : فى ضوء تأويل جديد للنقدية الكنطية، القاهرة ، دار غريب ، ١٩٩٤ ، ص ٥ .

عقلياً بتأويله وفق معايير العقل على النحو الذى يجعلــه غــير مناقض لمبدأ عقلى ؟! إن محاولة ليبنتز إنزال هذا المبدأ العقلــى الثابث على سر الثالوث عبر إعادة تأويل أقانيم الثالوث بغــرض جعل العلاقة بينها مفهومة للعقل، تتناقض مع رفعة لهذه العقيــدة فوق العقل ، كما أن تأويلها يتعارض بوضوح مع كونها سراً.

وثمة صعوبة تواجه رفع ليبنتز للأسرار العقائديــة فــوق العقل مع المطالبة بالإيمانِ بها، وهى: لماذا يقدم اللاهوت العقائد الجوهرية بوصفها أسراراً لايستطيع الإنسان أن يفهمــها وفــق معاييره العقلية وإذا ماطلب العقل براهين قاطعة، قيل له: آمــن أولاً.. فهذه العقائد تجاوز أى عقل إنسانى. إن هذه الموقف يضع الإنسان فى مأزق حقيقى إذ عليه أن يؤمن بمــا لايســتطيع أن يعقله! ثم ألا يمكن أن يكون مثل هذا الموقــف الــذى يطالبنــا اللاهوت به ذريعة لأية أسطورة أو خرافة تقدمها أديان أخــرى بوصفها الحقيقة المطلقة، وعندما نحتج عليها منكريــن يســارع القائمونِ عليها بالقول إنها فوق العقل ومن ثم يطالبونا بالإيمــان بها أولاً؟! إن حجية ليبنتز هنا وهى حجية اللاهوت بأســره تصلح أن تكون منفذاً لإنقاذ أية خرافة فى أية ديانة وضعيـــة ! إنها يمكن أن تبرر الثالوث الهندوسى، مثلما يمكــن أن تــبرر تاسوع أون أقدم نظرية فى الخلق .

ويدعى ليبنتز أنه لا توجــد دلائــل مناقضــة للأســرار العقائدية. لكن الرجوع إلى القوانين العقلية الثابتة يظــهر علــى الفور عدم مصداقية ادعاء ليبنتز؛ فقوانين الهوية وعدم التنــاقض والثالث المرفوع ضد الثالوث. ومع أن ليبنتز نادى بأن معيــار

الحق هو الوضوح وانعدام التناقض، ولهـذا، حتى يمكن اختيار حقائق العقل يكفى تطبيق منطق أرسطو[١١٢] (قوانيـن الهويـة وعدم التناقض والثالث المرفوع)، مع أن ليبنتز قال بهذا فـى نظريته الا بستمولوجية[١١٣]، فإنـه سرعان مانبذ هذا المعيـار في لاهوته؛ لأنه شعر بأن الأسرار والخوارق عرضة للانـهيار إذا ماتم النظر إليها من هذه الزاوية؛ ومن ثم أعلـن تجاوزهـا للعقل! ثم غالط نفسه وجزم بعدم وجود دليل علـى مناقضتـها للعقل، مع أنه من الملاحظ مناقضتها لمعيار الوضوح وانعـدام التناقض الذى اعتمده ليبنتز نفسه فى نظريته الابستمولوجية .

وقد مرَّ معنا أن ليبنتز قد حدد الحقائق السرمدية بأنها فـى مجملها ذات ضرورة تامة، ويفضى نقيضها إلى التناقض، ومـن قبيل تلك الحقائق ماله ضرورة منطقية أو ميتافيزيقية أو هندسية مما لايستطيع أحد أن ينكره دون أن يقع فى سـخافات منافيـة للعقل. والسؤال الذى نطرحه على أنفسـنا الآن : هـل عقيـدة الثالوث حقيقة سرمدية؟ ينبغى أن تكون الإجابة بنعـم إذا كنـا متسقين مع أنفسنا؛ لأن عقيدة الثالوث تمثل جوهر الألوهية التـى هى الحقيقة القصوى للكون، أو هكذا ينبغـى أن تكـون وفـق

---

(١١٢) انظر:

Leibniz , Logical Papers,ed. and trans. G.H.R. parkinson, Oxford , 1966. P. 56, 77 . حيث يذكر ارسطو بالاسم صراحة

(١١٣) John, W . nason," Leibniz and the logical argument Leibniz of Science, PP. 12 14 .

اللاهوت المسيحى. لكن هل عقيدة الثالـــــوث ذات ضـــرورة تامة، ويفضى إنكارها إلى الوقوع فى تناقض ؟ فى الواقع أنـــه لايوجد برهان حاسم على أنها ذات ضرورة تامة مثل الضرورة التى تتصف بها الأحكام الهندسية أو المنطقيـــة. ثـــم إن إنكـــار التثليث الأقنومى لايؤدى إلى الوقوع فى تناقض واضــــح مثـــل التناقض الذى ينتج من إنكار الأحكـــام الهندســـية والمنطقيـــة. ويترتب على هذا أن العقيدة التى كان ينبغى لها أن تكون مـــن الحقائق السرمدية ليست كذلك؛ لأنها مفتقدة لشروط تلك الحقائق. ومع هذا فإن ليبنتز يطالبنا بالتسليم بها، ويتوسل إلى ذلك بحجته التقليدية أنها فوق العقل، أما الحقائق السرمدية عنده فهى أحـــد نوعين من أنواع الحقائق العقلية. والتحفظ النقدي الذى يلح علينا مجدداً: أليس من العجيب أن يكون العقل قـــادراً علـــى معرفـــة الحقائق السرمدية والوقوف على ضرورتها التامة بينمـــا هـــو عاجز بإطلاق عن تعقل العقيـــدة الجوهريـــة والوقـــوف علـــى ضرورتها ؟!

ويستحضـر ليبنتز دليلاً مخادعاً لمحاولة إقنـــاع القـــارىء بموثوقية ومعقولية روايات المعجزات؛ فيقول: "يشبه هذا إلـــى حدما اعتمادنا على خبرة هؤلاء الذين شاهدوا الصيـــن؛ فعلـــى مصداقية رواياتهم يتوقف تصديقنا لتلك العجائب فى تلك البـــلاد البعيدة عنا"[114]. هذا دليل مخادع لأسباب عديدة :

---

(١١٤) Leibniz , Theodicy , P . 73 .

أولاً إن ليبنتز يشبه المعجزات بالعجائب الصينية، مع أن المعجزات باعتبارها خرقاً لقوانين الطبيعة (هكذا يعتبرها ليبنتز كما وضحنا سلفاً فيما يتعلق بالمعجزات الإلهية) تختلف جذرياً عن العجائب فى الصين؛ لأن هذه الأخيرة تأخذ صفتها تلك (أعنى كونها عجيبة) لا باعتبارها خرقاً للقوانين الطبيعية المطردة، بل باعتبارها مخالفة لما اعتاده الأوربيون من عادات وتقاليد وأساليب حياة؛ ومن ثم فهى ليست معجزات خارقة لقوانين الطبيعة الكلية بحيث يمكن مقارنتها بمعجزات المسيح.

ثانياً إن عجائب الصين باعتبارها أساليب حياة خاصة، غير مستبعدة إذا نحينا مؤقتا أسلوب التحقق التجريبى المباشر من العقل المحض وغير متضمنة لأى خرق لقوانين الطبيعة الثابتة ، إلا إذا كان ليبنتز يعتبر العقل الأوربى وحده هو العقل المحض الكلى! ويعتبر المألوف الأوربى هو المطلق !

ثالثاً إن ليبنتز يشبه البعد الزمانى التاريخى فى رواية المعجزات، بالبعد المكانى الجغرافى فى رواية عجائب الصين، وغير خاف أن هذا تشبيه مخادع، لأن التحقق من روايات آتية من مكان بعيد يمكن حسمه بالذهاب إليه، وهذا غير ممكن فيما يتعلق بروايات آتية من الزمن القديم .

رابعاً إن عامل الخبرة فى روايات الرواة عن الصين تقوم على خبرة مباشرة حدثت لكل راوٍ، وهذا الراوى نعرفه معرفة جيدة من حيث مدى صلاحه وصدقه ومقدرته على الحفظ وسلامة قدراته العقلية، بينما هذه المعرفة غير متوفرة بالقدر نفسه فيما يخص رواة المعجزات. ثم إن التوسط بيننا وبين

الأعجوبة التى حدثت فى الصين محدود بـــراوٍ واحـد شــاهد الأعجوبة ثم قصها علينا شفاهة أو كتابة، أما التوسط بيننا وبيـن الحدث الإعجازى الذى يرويه الكتاب المقدس فهو من الاتســاع والطول ـــ بحكم سلسلة الرواة الطويلة – بما لا يمكن مقارنتــه بأى وجه بالتوسط من النوع الأول. أضف لكل هــذا العوامــل التاريخية والصراعات السياسية والايديولوجية والعقائدية التــى تفعل فعلها فى تناقل الروايات الآتية من الزمن القديــم، بدليـل الخلاف الموجود بين الفرق التى تتخذ مواقف متباينة من تلــك الروايات، بل والتى تتناقل روايات متناقضة؛ فى حين أن كــل هذا تقريباً لايوجد فى مرويات العائدين من الصين .

ويصطدم ليبنتز فى تبريره للمعجزات الإلهيــة بتنــاقض؛ إذ إنه يعتبرها خرقاً لقوانين الطبيعة، أى أنها تنطوى على إقحام لفعل إلهى خارق على المنظومة التى تعمل وفقــاً لــها قوانيـن الطبيعة ، ومع هذا فالعالم عنده متناغم يحركه الانسجام الأزلــى و"على المرء أن يضع فى اعتباره أن المعجزات التى تحدث فى العالم هى نفسها كانت منطوية وممثلة كممكن فى نفـس العــالم حينما كان فى حالته الممكنة . وقد نفذ الله تلك المعجزات حينمـا اختار هذا العالم؛ لأنه بهذا الاختيار قـــد قضـــى بتنفيـذ تلــك المعجزات" (١١٥). ومن الواضح فى هـــذه الحالـــة الأخـيرة أن المعجزات كامنة فى العالم منذ البداية وممثلة فى المنظومة التــى تسيطر عليه، مما يناقض قوله الأول بأنــها خارقــة لمنظومــة

---

(١١٥) Ibid . , P . 152 .

القوانين الطبيعة. فمرة يزعم أنها خرق وتجاوز للأسباب ، ومرة يزعم أنها كامنة وممثلة كممكن فى نفس العالم؛ ولايرى أى تناقض فى الجمع بين هذين الزعمين .

من ناحية أخرى، فإن كل احتجاجات هيوم لايزال لها كل الحجية إذا مافهمنا المعجزات وفق ليبنتز على أنها خرق لقوانين الطبيعة(١١٦). ولايمكن تلافى هذه الاحتجاجات الهيومية إلا بالبحث عن منطلقات أكثر أمناً بإعادة تفسير المعجزات على أنها ليست خرقاً لقوانين الطبيعة، وإنما هى إنزال لقوانين طبيعية أعم لايعرفها أهل العصر الذى ظهرت فيه الديانة على قوانين طبيعية أخص اعتادوا عليها .

ولم يقم ليبنتز بتقديم تفسير من هذا القبيل للمعجزات الإلهية؛ حيث أصر على انها خرق وتجاوز للأسباب الطبيعية؛ فالعناية الإلهية تربك المنظومة الطبيعية وتوقف الآلية الكونية من آن إلى آخر لتظهر معجزة أو أكثر . وكأن الله غير قادر على البرهنة على الحق دون مخالفة السنن التى وضعها للطبيعة من قبل! سبحانه وتعالى عما يصفون.. إن العقلانية كانت تستلزم من ليبنتز إعمال قواعد ومعايير عقلية للدلالة على الحق من داخله لامن أمور خارجية خارقة تناسب المرحلة الحسية فى الوعى الإنسانى لكن عندما يتجاوز هذا الوعى المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلانية، فإن الروح العقلانية

---

(١١٦) انظر :

Hume , An Enquiry concerning Human Understanding ,ed. seliby bigge, Oxford, 1975 , PP . 211 ff .

تستتكف أو هكذا ينبغى أن يكون اعتبار الحس الطفولى فى الإنسان المولع بالخوارق مقياساً مطلقاً للبرهنة على الحق والحقيقة. إن الحقيقة بحق وحقيق هى التى تملك فى داخلها البرهان على صدقها، ومن ثم فإن هذا البرهان ليس مؤقتاً وطارئاً بظهور النبى أو حتى ابن الله فى لحظة زمنية عابرة، بل ينبغى أن يكون برهاناً دائما ومستمراً باستمرار هذه الحقيقة فى الوجود .

إن ليبنتز لم يكن عقلانيا كاملاً؛ فالعقل عنده ليس هو الحكم الأخير، وبعض الحقائق المدعاة فوق العقل، يجب التسليم بها رغم عدم وجود دلائل عقلية على صحتها، مثل الثالوث وكل ماجاء فى العهد القديم والعهد الجديد من أسرار مستغلقة. إن عقلانية ليبنتز هى عقلانية الغوامض والخوارق. ومن هنا فإننا لانتفق مع ماذهب إليه يوسف كرم عندما قال:"بدأ العصر الحديث بتمجيد العقل حتى أعلى كلمته فوق كل كلمة فجعل منه الحكم الأخير فيما يوجد ومالا يوجد وفيما يصدق ومايكذب: ذلك كان الحال عند ديكارت ومالبرانش وسبينوزا وليبنتز "(١١٧).

وإذا مااستحضر العرض السابق كله لموقف ليبنتز من اللاهوت، والعلاقة بين العقل والإيمان بالأسرار، تأكد بوضوح أن ليبنتز لم يجعل كلمة العقل فوق كل كلمة، ولم يجعل منه الحكم الأخير فيما يوجد ومالا يوجد وفيما يصدق ومايكذب؛ فثمة شيء- بل ثمة أشياء - فوق العقل، وثمة

---

(١١٧) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ، ص٤١٤.

كلمات أعلى من كلمته، إنها الغوامـــض اللاهوتيـــة والأســـرار العقائدية[118].

وإذا كان قد تأكد أن الدوافع اللاهوتية تعمل عملها في فكر ليبنتز إلى درجة يبدو معها الدين المسيحى محركـــاً دائبـــاً لـــه، وباعثاً متجدداً لكثير من مواقفه الفلسفية، فإن المرء لابد أن يقف متحفظاً إزاء تصنيف راسل لليبنتز مع الفلاسفة الذين تحركـــهم دوافع مستمدة من العلم لا من الدين والأخلاق، يقول راســـل: " عندما نحاول أن نحدد الدوافـــع التى قادت الناس إلى البحث فى المسائل الفلسفية، فإننا نجد بوجه عام أنها يمكن أن تنقسم إلـــى مجموعتين متضادتين غالبـــاً وتؤديـــان إلـــى مذاهـــب شـــديدة الاختلاف. هاتان المجموعتان من الدوافع هما: الدوافع المســتمدة من الدين والأخلاق من ناحية، وهناك الدوافـــع المســـتمدة مـــن العلم.. ويمكن أن نأخذ أفلاطون وسبينوزا وهيجـــل كنمـــاذج للفلاسفة ذوى الاهتمامات الدينية والأخلاقية أساساً. وفى المقـابل يمكن أن نأخذ ليبنتز ولوك وهيوم كممثلين للجناح العلمى. ونجد كلاً من هاتين المجموعتين من الدوافع حاضرة بقوة عند أرسطو وديكارت وباركلى وكنط"[119].

---

(١١٨) وهذا مالم يلاحظه هـ . د . لويس H.D.Lewis فى كتابه :

Philosophy of Religion, London, the English Universities press Ltd, 1975. P. 43, 171 .

حيث أكد على عقلانية ليبنتز فى مجال فلسفة الدين وهذا ما أثبتنا خطأه . ومن المؤكد أنه عقلانى فى نظرية المعرفة، لكنه لم يكن أبداً كذلك فى مواقفه اللاهوتية .

(١١٩) Russell, Mysticism and Logic . London, Unwin Books, 1963 , P. 75.

إن التحفظ على هذا التصنيف في ضوء ماثبت في تضاعيف هذا البحث، لايعني إنكار الجوانب العلمية في فلسفة ليبنتز؛ فهي واضحة كل الوضوح، وإنجازاته في العلم لايمكن التقليل من شأنها. لكن التحفظ هو على زعم راسل أن الدوافع العلمية هي التي قادت ليبنتز في كل مواقفه الفلسفية في مقابل طائفة أخرى من الفلاسفة كانت تحركهم الدوافع الدينية والأخلاقية، وطائفة ثالثة كان يَحركهم النوعان من الدوافع، أي العلمية والدينية الأخلاقية. فمن الأولى بعد استقصاء مواقف ليبنتز من اللاهوت المسيحي في علاقته بميتافيزيقاه وابستمولوجيته تصنيفه ضمن الطائفة الثالثة التي تجمع النوعين من الدوافع؛ لأن الدوافع الدينية حاضرة حضوراً طاغياً في فلسفة ليبنتز(١٢٠) .. وفي الوقت نفسه لايمكن إنكار دوافعه واهتماماته العلمية، مع التأكيد على أن إحدى السمات العامة لمواقف ليبنتز كانت هي التوفيق بين الدين والعلم، وقد ظهرت هذه السمة بوضوح في "العدالة الإلهية"، وعلى سبيل المثال في محاولة توفيقه بين عقيدة حضور المسيح ومشاركته الفعلية الحقيقية في القربان المقدس وبين نظرية نيوتن في الجاذبية. وثمة تحفظ على تصنيف راسل للدوافع المحركة للفلاسفة؛ فقد حصرها في نوعين فقط كما سبق هما الدوافع العلمية من ناحية والدوافع الدينية والأخلاقية من ناحية أخرى. ولم يذكر شيئا عن

---

(١٢٠) ومما يؤكد هذا قول ليبنتز عن نفسه :" أبدأ دوماً كفيلسوف، ولكني انتهي دوماً كرجل من رجال اللاهوت". مقتبس من :
Meyer, Leibniz and the Seventeenth Century Revolution , P. 152 .

الدوافع السياسية التى لاتقل أهمية عن النوعين السابقين، والتى تظهر بوضوح عند كثير من الفلاسفة، ومن بينهم ليبنتز نفسه، على ما اتضح لنا فى تحليل المحور السياسى كواحد من بين محاور ثلاثة تدور حولها فلسفة ليبنتز .

وإذا كان الدين متقاطعاً مع العلم فى تشكيل مواقف ليبنتز، فإنه متقاطع أيضاً مع السياسة؛ حيث يبدو واضحاً أن ليبنتز يؤازر العقائد المسيحية التقليدية، ربما لأنه جاء فى نهاية قرون عديدة من الحروب الدينية فى أوربا وانجلترا؛ حيث كان الصراع السياسى غير منفك عن الصراع الدينى. وظل ليبنتز يناصر تلك العقائد بكل مافيها من غوامض وأسرار رغم كل تحديات الشك والنقد العقلانيين سعياً وراء تحقيق السلام الدينى والوحدة السياسية فى المجتمع الغربى.

ويكشف استحضار البعد السياسى الاجتماعى فى قراءة لاهوت ليبنتز ، عن كونه محاولة للمصالحة بين البورجوازية والإقطاع فى ألمانيا بخاصة وأوربا بعامة، ولإذابة الفوارق بين الطوائف الدينية على حساب النقد العقلانى؛ بهدف إجهاض ثورية كل الحركات الدينية والفلسفية الآخذة فى النمو والتى هى فى أحد مستوياتها دفاع عن المظلومين والمقهورين؛ فمذهب أفضل العوالم الممكنة الذى طرحه ليبنتز فى "المونادولوجيا" و"العدالة الإلهية" وغيرهما، تعبير عن رؤية مكرّسة لمفهوم أن الظلم والهيمنة والاستغلال والاستعباد كلها تدخل فى نسيج

خير العوالم على نحـــو ضــروري[١٢١]! وكأنــها تقبــل بـــها بوصفــها وقـــائع لامفــر منــها لتحقيــق الخـــير الكلـــى المزعوم[١٢٢]. ومن ثــم تســلب الإنســان المقــهور فاعليتــه؛ لأن الخير الكلى مقدر سلفا، والعدالـــة ليســت متوقفــة علــى نشاط الإنسان وكفاحه، بــل علــى الظــروف المســتقلة عــن سيطرته، وهذه الظروف لاتتوقـــف لاعلــى الإرادة ولا علــى العمل؛ ومن ثــم لاداعــى لأى مجــهود إنســانى مــن أجــل تحسين هذا العالم؛ فهو أفضل العوالم الممكنـــة ســواء تحــرك إنسان أو لم يتحرك. ودفاع ليبنتز عــن الشــر، لا علــى انــه وقائع تتعارض مع مفهوم أفضل العوالم الممكنـــة، بــل علــى أنه يدخل فى خير العوالم، تبرير للجور الســـائد فــى مجتمــع قائم على الاستغلال والصراع الطبقى. كمـــا أن دفاعــه عــن لاهوت الغوامـــض والأســرار، تكريـــس للأيدلوجيــة التـــى ثارت ضدها البورجوازية الصاعدة فى ســبيل القضــاء علــى

---

(١٢١) تشبه ضرورة الشر لتحقيق الخير الكلى ضرورة الجزء القاتم من الصورة للجزء الآخر الأشد إشراقا وإضاءة بكل مافيه من جذب . انظر:

Hinnells ,The Facts on File Dictionary of Religion,, P. 120 .

(١٢٢) سخر فولتير من ليبنتز سخرية مريرة لقوله بنظرية أفضل العوالم الممكنة؛ حيث رمز إليه بشخصية دكتور بانجلوس Doctor Banglos فى روايـــة كـــانديد Candide الذى يبرر مغتبطا بنفسه ضروب اختيار الله لكوارث مريبة لامعنى لـــها. وتمثـــل هـــذه المحاكاة الهزلية لليبنتز إجابة ساخرة على رسالته "العدالة الإلهية" . انظر:

Brightman, E.S, APhilosophy of Religion, London, skeffington and son, Ltd ,. 1947 ,P. 147 .

- Cooper, world Philosophies , p. 265 .

الإقطاع الذى كان مرتبطاً ولو بشكل غير ظاهر بالكاثوليكية تلك التى اتهم ليبنتز باعتناقها نتيجة الانحياز لها فى بحثه "النظام اللاهوتى".

إن الاختيار مطروح دوماً بين العقل كأيديولوجيا والعقل كنقد، ويمكن القول- تأسيساً على ماسبق أن الانحياز التاريخى والسياسى والعقائدى دفع ليبنتز لاختيار العقل كأيديولوجيا؛ بينما دفع صدق العقل مع نفسه بايل إلى اختيار العقل كنقد. ولقد نتج عن اختيار ليبنتز هذا، احتواء الأيديولوجية للعقل، إلى درجة أدت إلى فقدان العقل وظيفتة كمقياس وميزان؛ حيث قام ليبنتز بغلق أبواب اللاهوت أمام العقل النقدى الحر، بينما نتج عن اختيار بايل للعقل كنقد ومقياس وميزان فتح أبواب اللاهوت وهدم أسواره أمام نور العقل الطبيعى .

وهكذا نجد أن ليبنتز كان سائراً على درب لاهوتيى العصور الوسطى المكرسين لدور العقل الإجابة الباحث عن التبرير . ولم يراهن ليبنتز على العقلانية النقدية التى تمثل الاختيار الفلسفى الحق؛والتى تفتح الوجود باعتباره ساحة موضوعات لاتند عن الوعى العقلى، وتنزل الغوامض والأسرار من عليائها المصطنع نتيجة الخوف من المواجهة، وهذا مامارسته كل الفلسفات العقلانية النقدية التى أرسلت رياح النقد الموضوعى على أصنام اللاهوت غير عابئة بالسلطة اللاهوتية التى تجعل العقل يقبل بخداع نفسه، ومن ثم أعطت للعقل دوره

المستحق فى البحث عن المعنى لأية ظـــاهرة، وفـــى الكشــف عن زيف كل ماليس لــه معنـــى موضوعـــى مـــن الأســـرار، وفى الطرح الاستفهامى الباحث عن التفســـير لاالتـــبرير.

لذلك يبدو دور العقل عنـــد ليبنـــتز هـــو دور العقـــل الإجابة التبرير، بينما دور العقل فى العقلانيـــة النقديـــة هـــو دور العقل السؤال التفســـير .

الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

هذا الكتاب

يأتي هذا الكتاب في إطار المحاولات الجادة التي يقوم بها المؤلف لإعادة قراءة وتقويم ونقد الفلسفة الغربية. وإذا كانت المصادر الأصلية هي المرجع الذي يعول عليه المؤلف دوماً، فإن هذا لايعني أنه يقف بالضرورة عند حدود الشرح النصي، لأن الشرح النصي لايمثل في هذا البحث سوى خطوة واحدة تبدو كمقدمة موضوعية للصعود نحو التأويل الفلسفي الذي ينظر إلى موقف ليبنتز من العقائد المسيحية النوعية مثل الثالوث والخلاص والتعميد وغيرها، باعتباره يشكل بنية استدلالية وإشكالية متشابكة العناصر. و يعتبر النقد الموضوعي الصارم لموقف ليبنتز اللاهوتي من أهم مميزات هذا الكتاب، لما يتميز به من أسلوب نقدي جديد يكشف عن موقف فلسفي رصين ومتميز .

أحمد غريب